محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء السادس

تأليــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

أبطولة زائفة مُضلة(١)

تلك هي الأبطولة التي تَنسب إلى رسول الله ﷺ، محاولة قتل نفسه في مدة فتور الوحي، إذ تقول الأبطولة: إنه حزن فيها حزنًا يائسًا، حمله على عزيمة إلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال ليقتلها، وهي أبطولة هزيلة منكرة، ألصقت إلصاقًا بأعظم وأجلّ كتب الحديث ودواوين السنة المطهرة.

- ذلك الفحل، لا يقدع أنفه(٢)، صحيح البخاري - وسارت بسيرورته إلى عقول المسلمين، وشهرت بشهرته فيهم، ولم نعلم أن أحدًا من علماء الأمة وأعلامها - على مدى القرون المتطاولة، منذ جمع البخاري صحيحه - رفع رأسه بإنكارها، أو أجرى قلمه بإبطالها، أو أطلق لسانه بتزييفها، وهي من أنكر المنكر، وأبطل الباطل، ينتشي فرحًا بها وبأمثالها أعداء الإسلام المتربصون به الدوائر، ويطرب لسماعها الملاحدة الجاحدون، الذين يتلمسون سقطات الروايات، تجري على أسلات الأقلام والألسنة في تراث الإسلام، لاسيما إذا سقطوا على تلك السقطات في كتب لها في أنفس المسلمين قدرها

---

(١) الأبطولة الخبر الباطل المناقض للحق، والجمع: أباطيل. (المجلة)

(٢) يقولون: فلان لا يقرع أنفه، أو لا يقدع أنفه، بمعنى أنه الكفء الذي لا يُرد ولا يُرغب عنه. (المجلة)

واحترامها، وتنزل من قلوبهم منزلة التقديس والإعزاز، مروية عن أشخاص لهم هالات الإجلال والإكبار في تاريخ الإسلام.

هذه الأبطولة ونظائرها مما يجب التوقف في قبولها، بل مما يجب رفضها وإبطالها، وإن تكن قد ألصقت بحديث ارتفع بصحة سنده ومكانة راويه ومخرجه عن مثارات الضعف الحديثي والوهن في الرواية.

جاءت هذه الأبطولة - بلاغًا - في رواية كتاب (التعبير) من الجامع الصحيح للإمام البخاري، ملصقًا بحديث (بدء الوحي) عن معمر، أو عن شيخه ابن شهاب الزهري، قال: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا - حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردى من شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل، فقال: يا محمد: إنك رسول الله حقًّا، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال مثل ذلك.

وجوه إبطال هذا البلاغ الزائف:

هذا البلاغ اللصيق بحديث بدء الوحي باطل زائف، وذلك من وجوه:

الأول: أن القاضي عياضًا - وهو من جهابذة الحديث وأعلام أئمة السنة النبوية المطهرة، وهو صاحب الموقف

السديد المحكم في توجيه عبارة (لقد خشيت على نفسي) الواردة في الحديث، وتقحَّمَ المتخرصون في تفسيرها وبيان المراد منها كل صعب منكر، حتى جاءها عياض ووضعها في مكانها من قصة بدء الوحي - ضعّف هذا البلاغ بأن صاحبه: معمر أو الزهري لم يسنده، وهذا مطعن فيه من جهة سنده، فلا وجه لقبوله، بل ينبغي طرحه ورفضه، ودعوى أن عدم إسناده لا يقدح في صحته - كما يقول الزرقاني في شرح المواهب: دعوى واهية لا تقوم على قدم صحيحة، ولكنها تعتمد على فرض احتمالي بأن صاحب هذا البلاغ بلغه هذا البلاغ عن الثقات؛ لأنه هو ثقة، وكون صاحب البلاغ ثقة لا يدفعه عن جواز قبوله ما لم يكن، توهمًا أنه كان؛ لأنه يحدّث عمن سمع، وحسنُ الظن بمن يسمع منه قد يحجب موضع النقد فيما يسمع، وهذا الاحتمال قائم في حق الثقات الذين بلغه عنهم - لو ثبتت ثقتهم - وتجرد ثقة مَن روى عنهم عنده لا يثبت الثقة؛ لأنه في نظره وتقديره ثقة، وهو عند غيره ضعيف لا تُقبل روايته، على أنه لو كان مَن روى عنهم هذا الثقة ثقات عنده لِمَ دلّسهم وأخفاهم ولم يسمّهم وهو حافظ قادر على التسمية؟ وهذه الأقصوصة سيقت بلاغًا، فهي من مرسلات الزهري وفي مرسلاته كلام عند النقاد، ومِن أشدهم وأوثقهم في رفضها وعدم قبولها إمامُ النقدة يحيي بن سعيد القطان، وسعة حفظ الزهري وإمامته في هذا لا يمنحه العصمة عن

الغلط والوهم، والعصمة عن الخطأ والغلط والتوهم مفقودة في جميعهم، والمحكّم في ذلك ليس مجرد الثقة فيمن يسمع منه، بل يجب أن يكون المعوّل عليه مع ثقة مَن يسمع منه عدم مناقضة النص المسموع من الثقة لأي أصل من أصول الإيمان، فصحة المتن شرط مع صحة السند في قبول النص المسموع، بمعنى أن الحديث يجب أن يكون صحيح السند مرويًا عن الثقات الضابطين، ويجب مع ذلك أن يكون صحيح المتن، أي النص الوارد بذلك السند الصحيح، فلا يتعارض مع أصل من أصول الإيمان المتفق عليها بين أئمة الدين والعلم، ولا يتعارض مع الدلائل الظاهرة التي تخالف مدلول النص المروي بالسند الصحيح.

هذا البلاغ يتعارض مع أصول الإيمان بالنبوة:

وهذا البلاغ اللصيق - مع تسليم صحة سنده - بحجة أن صاحبه ثقة فلا يروي إلا عن الثقات يتعارض أوّلا مع أصل أصول الإيمان، وهو عصمة الأنبياء والرسل، بمعنى حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم، وتفكيرهم وخواطرهم، وسائر أعمالهم، حفظًا كاملًا، فلا يقع منهم قط ما يشكك في نبوتهم ورسالاتهم، وهذا البلاغ المعمري أو الزهري لم يُبْقِ لعصمة النبي ﷺ مكانًا في مدة الحزن اليائس التي تقول أبطولة هذا البلاغ إنه ﷺ مكثها وهو يغدو مرارًا كي يتردى من شواهق

الجبال، لاسيما على مذهب من يرى أن مدة فترة الوحي - وهي مدة الحزن اليائس - قد طالت إلى ثلاث سنوات، أو سنتين ونصف سنة، أو ستة أشهر، وفي هذا البلاغ الزائف تصريح بأن صاحبه يذهب مذهب من يرى طول مدة فترة الوحي، وهي مدة الحزن اليائس الذي زعمه هذا البلاغ الباطل على رسول الله ﷺ؛ لأن ما ذكر فيه من الغدوّ مرارًا لكي يلقي بنفسه من ذرا الشواهق يقتضي طول المدة، لاسيما مع تمثّل جبريل له وقوله: أنا جبريل وأنت رسول الله حقّا أكثر من مرة.

ويتعارض هذا البلاغ ثانيًا مع ما يجب أن يكون عليه النبي ﷺ من رسوخ الإيمان بنبوته، وأكمل اليقين برسالته، ولا شك أن ما جاء في هذا البلاغ الباطل - من تبدّي جبريل عليه السلام للنبي ﷺ كلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منها نفسه، وقوله له: يا محمد: أنت رسول الله حقّا، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل(٣)، تبدّى له جبريل عليه السلام، فقال مثل ذلك - يصور مدى ما بلغه ذلك الحزن اليائس - في زعم قائليه - من نفس النبي ﷺ حتى جعله يتشكك في تبدّي جبريل له، وفي إخباره أنه رسول الله حقّا، فالنبي ﷺ - كما تصرح به عبارة هذا البلاغ - لم يكد يسكن جأشه لتبدّي جبريل له وإخباره أنه رسول الله حقّا - حتى يعود

(٣) ذروة الجبل قمته. (المجلة)

إلى عزيمته في إلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال، فيتبدى له جبريل مرة أخرى، ويقول له: يا محمد، أنت رسول الله حقّا.

فأين سكون جأشه الذي أحدثه في نفسه تبدّي جبريل له وإخباره أنه رسول الله حقّا؟ وأين رسوخ إيمانه برسالة ربه التي شرفه بها قبل فترة الوحي وأنزل عليه في أول مراتب وحيها في غار حراء قرآنًا يتلى، وعاش في أنوارها أي أنوار نبوته التي سبقت رسالته ﷺ طول هذه المدة، وهو - كما يقول البلاغ الزائف - يعود إلى عزيمته لإلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال إذا طالت عليه فترة الوحي.

وليس في هذا النقاش - الذي يكشف عن زيف هذا البلاغ، ويبين بطلان ما يحكيه من هذه الأبطولة الأسطورية، بيانًا لتسامي ساحة رسول الله ﷺ عن هذه الترهات الباطلة - ما يخيف بعض مهزوزي الفكر التقليديين، من فتح أبواب التشكيك في روايات الثقات من أئمة الدين والعلم، الذين حفظوا على الأمة نصوص دينها، ونقلوا إليها سنة نبيها ﷺ نقلًا نقيًا محكمًا؛ لأن أولئك الأئمة الأعلام لم يغفلوا عما قد يعتري الإنسان مهما كانت مكانته من الثقة، من الوَهَل(٤) والنسيان والغلط، وهم الذين وضعوا - استنباطًا من الكتاب والسنة - قواعد قبول النقول والروايات، حماية للنصوص

(٤) الوهل ذهاب الوهم إلى شيء غير مراد. (المجلة)

أن تدخلها الأباطيل، عن قصد أو عن غير قصد، إيمانًا منهم بالقوة الذاتية للأصول الإسلامية التي لا يهزها نقد رواية، ولا إظهار خطأ راوٍ مهما كانت مكانته من الثقة والضبط.

ونحن في نقاشنا هذا البلاغ إنما اقتدينا بأولئك الأئمة الأعلام فيما أسسوه من أصول وقواعد محكمة النسيج، في ظلها وصلت إلينا نصوص السنة النبوية مصفّاة نقية من غلس الأباطيل، فإذا ندّ من شباك قواعدهم خيط من الشك والتلبيس وجد من تلك القواعد الأصولية منافذ لمن يلاحقه بحثًا ونقدًا حتى يلقي به من ذرا شواهق الشكوك إلى مسارب الأباطيل، وأودية الفناء.

حسبنا أن نذكر هنا - تأييدًا لنقدنا في نقاشنا هذا البلاغ الزائف - موقف الإمام النووي من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري في أن أول ما نزل من القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ إذ يقول: وأما ما روي عن جابر وغيره: أن أول ما نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ فهو ضعيف، بل باطل بطلانًا ظاهرًا، ولا تغتر بجلالة من نقل عنه، فإن المخالفين له هم الجماهير، ثم ليس إبطالنا قوله - أي قول جابر بن عبد الله - تقليدًا للجماهير، بل تمسكا بالدلائل الظاهرة. اهـ.

فأنت ترى أن الإمام النووي قد قطع الحكم ببطلان حديث جابر - ولم يقف عند تضعيفه - في أن أول ما نزل من القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وهو حديث من رواية أوثق الثقات، فهو صحيح السند بلا أدنى ريب، وفي ذلك يتساءل الزرقاني في شرح المواهب فيقول: فإن قلت كيف حكم النووي وغيره بالضعف، بل بالبطلان على المروي عن جابر مع صحة الطريق إليه؟ كيف وهو في أرفع الصحيح (مروي الشيخين)، قلت - أي الزرقاني مجيبًا عن تساؤله: حكمه - أي النووي - إنما هو على نفس القول الذي صحت نسبته لقائله بصحة سنده. اهـ.

وهذا الجواب عن التساؤل هو معنى قولنا: إن صحة المتن - أي النص - شرط مع صحة السند في قبول النص المسموع، فإذا صح السند وناقضَ المتنُ أصلًا من الأصول الإيمانية، أو خالف الدلائل الظاهرة - كما يقول النووي - فقد وجب الحكم ببطلان الحديث وعدم قبوله، ولا يُغْتر بجلالة من نقل عنه؛ لأن جلالة من نقل عنه النص لا تفيد أكثر من توثيق السند وصحته، وذلك لا يكفي في قبول متن الحديث ونصه.

فالإمام النووي حكم ببطلان حديث جابر لمخالفته الدلائل الظاهرة، ومخالفته لما ذهب إليه الجماهير من العلماء، وحديث جابر من مسندات أرفع الصحيح، ونحن حين ناقشنا هذا البلاغ الزهري الزائف، وقطعنا ببطلانه - مع فرض تسليم صحة سنده، وقد علمنا أن القاضي عياضًا، وهو من جهابذة أئمة الحديث، قد طعن فيه بالضعف لأنه لم يسند - لم نقطع بهذا البطلان تقليدًا لأحد، بل تمسكًا بالدلائل الظاهرة التي

كان مــن أظهرها مخالفة هذا المتن لعصمــة النبوة، وهي أصل من أصول الإيمان، ولما يؤدي إليه هذا البلاغ من وجود الشك عند النبي ﷺ في تبدّي جبريل له وإخباره بأنه رسول الله حقّا؛ بمــا كان منــه بعد هذا التبــدّي والإخبار من العــودة إلى عزيمة إلقاء نفسه ﷺ من ذرا شواهق الجبال.

وفرق كبير جدّا بين الحكم بإبطال بلاغ لم يَسْلم من الطعن فــي ســنده، وإن كان قد ألصق بأحد الصحيحيــن وبين الحكم بإبطــال حديث مســند من مرويات أرفع الصحيــح، ينتهي إلى أحد أعلام الصحابة رضي الله عنهم.

وفــرق كبير جــدّا بين قطــع الحكــم بإبطال بــلاغ مطعون في ســنده، ولا ســبيل إلــى تأويلــه، وصرفه عــن مدلوله الذي يناقض العصمة التي لا تتحقق رســالة الرسل، ونبوة الأنبياء إلا بتحققها، ويناقض ما يجب أن يكون عليه النبي ﷺ من رسوخ الإيمان بنبوته، وأكمل اليقين في رسالته، وقد جعله هذا البلاغ الزائف - على رغم تبدّي جبريل له وإخباره بأنه رسول الله حقّا - يعــود بعد هــذا التبدّي والإخبار إلى عزيمته لكي يتردّى من شواهق الجبال، وبين قطع الحكم بإبطال حديث موثق السند، وللعلمــاء منادح في تأويله، ومذاهب فــي تصحيح مدلوله بما يتفق مع مذهب الجماهير ويتفق مع الدلائل الظاهرة.

فلا يهولنّ الناظر في بحثنا هذا نقاشــنا لهذا البلاغ وإبطالنا له، فيسد على عقله منافذ الوصول إلى الحقيقة التي تنزّه ساحة

الرسالة الخالدة الخاتمة من هذه الأباطيل.

وفـي موقف الإمـام النووي من حديث جابـر زيادة نكتة من المعـارف الإسـلامية تـدل على أن أصـول الإسـلام لا تقبل أن تتدخل مكانة من نقل عنه الحديث في قبوله، مهما كانت تلك المكانـة في جلالته، وهل هناك أجلّ فـي الرواية وأرفع في ثقة النقل من مكانة الصحابـة، خاصة أعلامهم الأجلاء الذين يأتي في سـلكهم الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهمـا؟ وقد أبنّا موقف إمام من أئمـة الدين والعلم ورواية الحديـث، هو الإمام النـووي، ومعه غيره من الأئمة من حديث جابر.

فـلا موازنـة بين بلاغ مطعون في سـنده، مغلق عـن التأويل متنُه ومدلول نصه الذي لا سـبيل فيه لمحض الرأي، مروي عن تابعي صغير لم يسـنده إلى قائل - كما هو صريح قوله - فيما بلغنـا - دون أن يفصح عمن بلغه، وبين حديث موثق السـند، مروي فـي أرفع الصحيح مسـند إلى صحابي مشـهور بالعلم، ولهذا الحديث مذاهب وطرق في التأويل، وتصحيح المدلول، كما سيأتي في بحث (أول ما نزل من القرآن).

ولا موازنـة بيـن صحابـي مـن أعـلام الصحابة، أسـند إليه الحديـث الموثق في سـنده، وبين تابعي صغير هـو الإمام ابن شـهاب الزهـري أو تلميذه معمـر، ولئن أمكن دخـول الخطأ والوهـل على الصحابـي فدخوله على التابعي أو تلميذه أيسـر

وأقــرب، فنقد هذا البــلاغ وأمثاله من مدخــول العلم لإبطاله، والكشــف عــن زيفه ليــس بدعًا فــي معارف الإســلام وبحوث أئمتــه، بل هــو أمر متعارف في تاريخ البحث الإســلامي، معبّد الطريق، محمود العاقبة.

والــذي يمعِــن النظر فــي كتب الرجــال، ودواويــن الجرح والتعديل، وغربلة الحديث النبوي، وتنقية السنة المطهرة من غلس الأباطيل، ووهل الرواة يرى من ذلك العجب العجاب.

وقــد عد العلماء هذا الاتجاه فــي النقد والبحث أحد مفاخر الأمــة الإســلامية التي حفظــت عليهــا نقاء نصوصهــا وصحة نقولها، ولم يصبها من جرّائه ما يخشــاه عليها المهزوزون في تفكيرهــم، التقليديون فــي علومهم ومعارفهــم، وقد ثبت في صحــاح الأحاديث أن بعض الصحابــة وهّم بعضًا، فمن ذلك ما رواه أبــو داود عــن ابن عباس أنه قــال: إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم[٥].

كما ثبت في موطأ الإمام مالك رضي الله عنه أن أم المؤمنين عائشــة رضي الله عنها غلّطت أبا هريــرة رضي الله عنه في قوله بإفطــار الصائــم إذا أصبــح جنبًا: فقالت - وقد ذُكِــر لها أن أبا هريرة يقول: من أصبح جنبًا أفطر ذلك اليوم - ليس كما يقول أبو هريرة؛ فأشــهد على رسول الله ﷺ أنه كان يصبح جنبًا من

(٥) أوهم: توهم. (المجلة)

جماع غير احتلام، ثم يصوم ذلك اليوم، فلما ذكر لأبي هريرة قولها قال: لا علم لي بذلك، إنما أخبرنيه مخبر، قال الإمام الفقيه أبو الوليد الباجي في شرح الموطأ: وقول عائشة رضي الله عنها: ليس كما قال أبو هريرة، هو الواجب من الرد، ليس فيه أذى لأبي هريرة، ولا تقصير عن إنكار الباطل.

أفكان أبو هريرة رضي الله عنه في سماعه ما سمع ممن أخبره بهذا الحكم غير ثقة؟ وهل كان من سمع منه أبو هريرة هذا الحكم الباطل غير ثقة؟ كلا، فأبو هريرة كان من أوثق حملة حديث رسول الله ﷺ وفقه السنة النبوية، فلا يحدّث إلا عن ثقة، وقد عُرف باسمه وشخصه من سمع منه أبو هريرة ذلك الحكم، وهو الفضل بن العباس رضي الله عنهما، وهو نبع في رياض الصدق والثقة، ولكنه غير معصوم فأوهم، وتبعه في هذا التوهم أبو هريرة لثقته في صدقه وضبطه وفقهه في الدين، ولم ينقص ذلك من قدر الفضل في فضله، ولا حط من قدر أبي هريرة في علمه، وهل كانت عائشة رضي الله عنها في إنكارها على أبي هريرة ما قال من حكم باطل متجنية عليه، أو أنها قامت بما يجب عليها من إنكار الباطل؟.

بل ثبت فيما يرويه ابن سعد أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهّلت الفاروق عمر، وابنه عبد الله بن عمر، لما قال الطبيب لعمر رضي الله عنه بعد طعنته القاتلة: (اعهد يا أمير المؤمنين)، بكى عليه القوم حين سمعوا، فقال: لا تبكوا

علينا، من كان باكيًا فليخرج، ألم تسمعوا ما قال رسول الله ﷺ: (يعذب الميت ببكاء أهله عليه)، فمن أجل ذلك كان عبد الله بن عمر لا يقر أن يبكى عنده على هالك من ولده ولا غيرهم، وكانت عائشة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ تقيم النُّوّح على الهالك من أهلها، فحُدّثت بقول عمر عن رسول الله ﷺ، فقالت: يرحم الله عمر وابن عمر، فوالله ما كذبا، ولكن عمر وهّل، إنما مر رسول الله ﷺ على نُوّح يبكون على هالك لهم، فقال: (إن هؤلاء يبكون، وإن صاحبهم ليعذب).

وتغليط الأكابر بعضهم بعضًا نهج إسلامي، يقوم على دعائمه إحقاق الحق وإنكار الباطل، وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قولها: وَهَّلَ ابن عمر، أي ذهب وهمُه إلى شيء غير مراد، أو سها وغلط، وثبت أن عبد الله بن عمر قال في أنس بن مالك وهّل أنس، أي غلط، فهؤلاء الأعلون في آفاق الثقة والصدق لم يروا في تخطئة بعضهم بعضًا ما يمس مكانتهم في الفضل؛ لأنهم يرون أنهم بمقتضى إنسانيتهم ليسوا معصومين عن الخطأ والوهم، ولم يفتح ذلك منافذ الخشية والخوف على رواية هؤلاء الأكابر ونقولهم، كما يزعم التقليديون مهزوزو التفكير، بل فتح أبواب الإعجاب والإجلال، ورسوخ الإيمان بعظمة الإسلام الذي رُبّيَ أهله على حب البحث لمعرفة الحق ببراهينه وموارده، وإنكار الباطل مهما كانت مصادره.

ومن لطائف الموافقات أن الإمام ابن شهاب الزهري نفسه

صاحب بلاغ الحزن اليائس وهّل نافعًا مولى عبد الله بن عمر، وغلطه فيما حدث به عن مولاه في تفسير قول الله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣) الآية قال القاضي أبو بكر بن العربي: ويُروى عن الزهري أنه قال: وهّل العبد – يعني نافعًا – فيما روى عن ابن عمر في ذلك، ونافع في مكانته من الثقة والضبط – ولاسيما على مولاه عبد الله بن عمر – حلقة في سلسلة الذهب التي اتفق المحدثون على توثيق رجالها ورفع درجاتهم فوق سائر الثقات، ولم يمنع ذلك الإمام الزهري من الحكم عليه بالوهل والغلط، وليس الإمام الزهري على علو إمامته بأرفع من درجة نافع في الثقة والضبط، فإذا غلّط الزهري نافعًا ووهّله في النقل عن مولاه عبد الله بن عمر، فلا عجب أن يُغلّط الزهري ويوهّم في بلاغ الحزن اليائس، دون أذى له، أو تقصير عن إنكار الباطل في بلاغ يناقض ما يجب للنبوة المرسلة من قداسة وعصمة، وما يجب لمحمد سيد الأنبياء وإمام المرسلين من توقير وإعظام في إيمانه بنبوته ويقينه برسالة ربه.

وللزهري أغلاط أخذها عليه الأئمة وليس لها مخرج إلا أنها من أوهامه قال ابن عبد البر: وأما قول ابن شهاب الزهري إن المتكلم مع النبي ﷺ في حديث السهو في الصلاة، أنه ذو الشمالين فلم يتابع عليه، وحمله الزهري على أنه المقتول يوم

بدر وغُلّط فيه، والغلط لا يسلم منه أحد.

وقال البيهقي: وهَم الزهري في قوله ذي الشمالين وإنما [هو] ذو اليدين. وقال السهيلي في الروض: روى الزهري حديث التسليم من الركعتين، وقال فيه: فقام ذو الشمالين. لم يروه أحد هكذا إلا الزهري، وغلط عند أهل الحديث. وقال النووي: ذو اليدين اسمه الخرباق، وأما ذو الشمالين فهو عمير الخزاعي وهو غير المتكلم في حديث السهو هذا قول جميع الحفاظ إلا الزهري، وقد اتفقوا على تغليط الزهري في ذلك.

الثاني: هذا الوجه متفرع على الأساس الذي قام عليه الوجه الأول، وهو أن هذا البلاغ ضعيف لم يسنده صاحبه - كما قال القاضي عياض - والقول بأن عدم إسناده لا يقدح في صحته، اعتمادًا على أن صاحبه ثقة لا يروي إلا عن الثقات، لا يدفع الاحتمال في ضعفه لعدم إسناده، ومجرد هذا الاحتمال كاف لرده وعدم قبوله، ولو كان راويه من أوثق الثقات الذين يفرض فيهم أنهم لا يروون إلا عن الثقات؛ لأن هذا الفرض لا يرفع أصل الاحتمال، ولو سُلِّم رفع الاحتمال وصح له سند موثق، يبقى وراء ذلك احتمالُ وَهَلِ الثقة صاحب البلاغ، وتوهّمَه غلطًا وقوع ما لم يقع، أو احتمال وهَل الثقة الذي سمع منه صاحب البلاغ، وقد أثبتنا ذلك عن بعض أكابر الثقات من أجلة الصحابة وكبار التابعين، وأن بعضهم وهّل بعضًا ووهّمه في

مسائل أقل شأنًا من هذا البلاغ الذي يجب إنكاره وإبطاله؛ لأنه يتعلق بأصل إيمان النبي ﷺ بنبوته ويقينه برسالته التي يجب أن يقوم الإيمان بها على أكمل اليقين القاطع الذي لا يعتوره شك في أية لحظة من اللحظات، وهذا يقتضي رد بلاغ الحزن اليائس، وإبطاله وعدم قبوله ولو كان صحيح السند، لمناقضته لأصول الإيمان والعقيدة.

فحمله على التوهم والغلط أدنى درجات رده وعدم قبوله، إعمالًا لحسن الظن بأن روايته في صحيح البخاري -وإن كانت بلاغا- يعصمه عن تعمد الكذب.

الثالث: أن ما جاء به هذا البلاغ الزائف من قوله: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ -فيما بلغنا- حزنا غدا منه مرارًا كي يتردّى من شواهق الجبال إلى آخره، مختلف فيه، هل هو من زيادة معمر على رواية عقيل عن ابن شهاب، أو هو داخل في رواية عقيل كما يوهمه صنيع البخاري؟

قال العلامة ابن حجر في الفتح: وقد أبان ذلك الحميدي، فساق الحديث إلى قوله: (وفتر الوحي)، ثم قال: انتهى حديث عقيل المفرد عن ابن شهاب، وزاد عنه البخاري في حديثه المقترن بمعمر عن الزهري، فقال: وفتر الوحي فترة حتى حزن، فساقه إلى آخره.

ثم قال ابن حجر: والذي عندي أن هذه الزيادة خاصة برواية معمر، فقد أخرج -طريقَ عقيل- أبو نعيم في مستخرجه من

طريق أبي زرعة الرازي عن يحيى بن بكير شيخ البخاري فيه في أول الكتاب بدونها، وأخرجه مقرونًا هنا برواية معمر، وبيّن أن اللفظ لمعمر، وكذلك صرّح الإسماعيلي أن الزيادة في رواية معمر، وأخرجه- أي الحديث- أحمد ومسلم والإسماعيلي وغيرهم، وأبو نعيم أيضًا من طريق جُمَيْع -من أصحاب الليث- بدونها.

فهذا البلاغ الذي اشتمل على هذا التخرّص الباطل لم يرد في طريق من طرق الحديث على كثرتها وكثرة من روى الحديث من الأئمة إلا في رواية معمر، وهذا التفرد يوجب -على الأقل- التوقف في قبوله، بل يوجب ردّه وإبطاله لما فيه من القوادح، بتعريض النبوة لهزة الشك والارتياب، وتعريض النبي ﷺ لقلق النفس واضطراب الضمير، وهزة الإيمان وحيرة اليقين.

الرابع: أن ما تضمنه هذا البلاغ الزائف يشمل أمرين:

أحدهما: ظاهر محسوس، يمكن مشاهدته، والحكم بوجوده أو عدم وجوده بمقتضى إمكان مشاهدته حسًا، وثانيهما: باطن محجوب في داخل النفس، لا يمكن معرفته لأحد إلا بإخبار صاحبه الذي دار في نفسه أو إخبار من أظهرهم عليه بنقل ثابت عنه.

فذهاب النبي ﷺ إلى أعالي الجبال وشواهقها التي ألف الصعود إليها في أزمان خلواته وتطلعاته للتفكر في عجائب آيات الله الكونية، وبدائع ملكوته، أمر محسوس، يمكن

الحكم عليه برؤيته ومشاهدته، ولا حرج في أن يكون النبي ﷺ قد حزن في فترة الوحي اشتياقًا لأنوار الشهود الروحاني الأعلى الذي كان يغمره في أوقات نزول الوحي، ونزول آيات القرآن المبين حزنًا كان يغدو منه إلى ذرا الجبال التي كانت مأنس روحه(٦)، تطلعًا إلى آفاق أشواقه لشهود تجليّات أمين الوحي جبريل عليه السلام الذي سبق له أن تجلّى في آفاقها بصورته الملائكية الروحانية العالية.

وكون هذا الذهاب إلى ذرا شواهق الجبال لقصد التردّي منها ليقتل نفسه- كما هو نص عبارة البلاغ الزائف- أمر باطن محجوب بأستار الضمير في حنايا النفس، لا يعلمه ولا يطلع عليه إلا الله علام الغيوب، وإلا صاحبه الذي دار في حنايا نفسه، وعزم على تحقيقه عمليّا، وإلا من يظهره عليه صاحبه العليم به بإخبار منه إليه.

ولم يثبت قط في حديث صحيح أن النبي ﷺ أخبر عن نفسه أنه كان في مدة فترة الوحي يذهب إلى قنن الجبال الشواهق وذراها ليرمي نفسه من فوقها انتحارًا لحزنه على فتور الوحي.

ولهذا كانت نسبة ذلك إلى النبي ﷺ منكرًا من القول، وباطلًا من المحالات التي لا يقبلها عقل، ولا تتلاءم مع أصول الإيمان.

(٦) الذرا جمع ذروة وهي القمة. انظر الوسيط. (المجلة)

وما ورد في حديث ابن عباس عند ابن سعد والإمام أحمد من قوله- أي ابن عباس- : مكث النبي ﷺ (أيامًا) بعد مجيء الوحي لا يرى جبريل، فحزن حزنًا شديدًا حتى كان يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء أخرى، يريد أن يلقي نفسه، غير مُسلَّم من وجوه:

أولها: أن حديث ابن عباس من رواية الواقدي، وهو معروف بالضعف، لا يقبل الجهابذة من المحدّثين روايته إلا إذا اعتضدت بروايات الثقات.

ثانيها: إذا صح سند الحديث إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فابن عباس لم يرفعه إلى النبي ﷺ، ولا إلى من سمعه من النبي ﷺ، فهو اجتهاد لا يعلم معتمده في أمر لا سبيل إلى معرفته إلا بإخبار من النبي ﷺ ولم يثبت هذا الإخبار، فالحديث موقوف على ابن عباس، فيكون في منزلة بلاغ الزهري كما يؤخذ من كلام ابن حجر، يجب رفضه كرفض بلاغ الزهري، وإبطاله كإبطاله، ولعل هذا الحديث الضعيف في سنده الباطل في متنه ونصه هو مستند بلاغ الزهري، والزهري إمام موثق، فلا درك(٧) على البخاري في إلحاق بلاغه بجامعه من جهة توثيق السند، على أن البخاري لم يلحقه بجامعه إلا في موضع واحد

---

(٧) لا دَرْك على فلان في كذا، أي لا تبعة عليه فيه، أي لا لوم ولا انتقاد. انظر مختار الصحاح. (المجلة)

فقط من مواضع حديث بدء الوحي، وهي متعددة فيه بالإسناد نفسه مقرونًا بإسناد آخر تارة، وغير مقرون تارة أخرى، ولم يرد في تلك المواضع ذكر لهذا البلاغ الزائف إلا في كتاب (التعبير) بلاغًا، لا تأصيلا.

وقد بيّنا أن توثيق السند بتوثيق الرواة، لا يلزم منه صحة متن الحديث، وقد استأنسنا بكلام الإمام النووي في قطعه الحكم بإبطال حديث جابر بأن أول ما نزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وهو من أرفع الصحيح، إذا هو مروي الشيخين، وله منادح في مجال التأويل.

ثالثها: أن حديث ابن عباس اشتمل على نص صريح في بيان المراد من فترة الوحي بأنها عدم رؤية النبي ﷺ جبريل عليه السلام في مدتها، وهذا مخالف لما جزم به ابن حجر في الفتح من أن المراد بفترة الوحي تأخر نزول القرآن فقط، لا عدم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ، وهذا أمر لا مدخل فيه للاجتهاد والرأي، ولا يقال إلا عن نقل، فلابد أن يكون ابن حجر قد اطّلع على علةٍ لضعف حديث ابن عباس، واطّلع على نص فيما جزم به وذهب إليه.

رابعها: أن حديث ابن عباس جعل مدة فترة الوحي أياما وأكثر الروايات لم يفصح عن مقدارها غير مرسل الشعبي الذي فهم منه بعض الناظرين أن مدة السنين الثلاث المذكورة

فيــه هــي مدة فتــرة الوحي وقد اســتبعدنا ذلك، وغيــر ما ذكر السهيلي أن مدة فترة الوحي جاءت في رواية مسندة أنها كانت ســنتين ونصفا، وهذا اختلاف يحتاج إلى ترجيح، فإن لم يكن فقد وجب الوقف عن إعمال بعض وترك الآخر.

وقد ثبت في الصحيح أن النبيَّ ﷺ تحدث عن فترة الوحي، ولــم يرد فــي كلامــه كلمة واحــدة، تشــعر بمــا تقحَّمتْه هذه التخرّصــات الباطلة، والمزاعم الفاســدة التــي جاءت في بلاغ الحــزن اليائس مــن أنه ﷺ كان في مدة فتــرة الوحي يغدو إلى ذرا شــواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها؛ لما انتابه من حزن يائــس على فتور الوحي، ومعاذ الله أن يكون هذا المنكر قد دار في خلد محمد رسول الله سيد الخلق ﷺ.

أخرج الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما من الأئمة عن ابن شــهاب الزهري قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشــي ســمعت صوتًا من الســماء، فرفعــت بصري قبل الســماء فــإذا الملك الــذي جاءني بحراء قاعد على كرســي بين الســماء والأرض، فَجَئِثْــتُ(٨) منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت لهم (زملوني، زملوني فزملوني)، فأنزل الله تعالى:

---

(٨) جَئِثْت أي رُعبت حتى وقعت على الأرض.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ (المدثر : ١ ، ٢).

إلى قوله:

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ (المدثر : ٥).

ثم تتابع الوحي.

ولعل الناظر في هذا البحث يعجب أن يكون هذا الحديث الصحيح، وهو يقص ما حدث للنبي ﷺ في فترة الوحي -وهي فترة الحزن اليائس في نص البلاغ الزائف- يرويه الزهري نفسه، وهو صاحب بلاغ التردي من ذرا شواهق الجبال، وليس في حديثه المسند الموثق بصحة سنده كلمة واحدة تشعر من قريب أو بعيد بما جاء في تخرّصات البلاغ الذي لم يسند، فكيف ومن أين عرف المتخرصون أن النبي ﷺ كان يغدو في فترة الوحي إلى ذرا شواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها؟ وهو ﷺ وقد تحدث عن فترة الوحي ولم يقل شيئًا من تلك المزاعم التي جاء بها البلاغ الزائف، ولو كان ﷺ قال شيئًا مما تخرص به ذلك البلاغ لنقل مرفوعًا إليه ﷺ نقلًا متواترًا أو مشهورًا، لا بلاغًا غير مسند؟ كيف ولو كان لذلك وجود في حياة النبي ﷺ لكان من أعظم الأحداث التي تتضافر الرواة والنقلة على روايته ونقله، ولكنه لم ينقل مرفوعًا، ولا روي مسندا، فهو باطل منكر، ما كان ينبغي أن يلحق بالجامع الصحيح.

ولقد عرف أن النبي ﷺ كان يأنس إلى زوجه الوفية الأمينة

السـيدة خديجة رضي الله عنها، أُنسًـا لم يأنسه بأحد سواها، فيحدثها بما يكون قد رأى وسـمع فـي خلوته، بمتعبده أو في مرجعـه إليه من غرائـب الأحداث وعجائب الآيـات، وخوارق الإرهاصـات التـي كانت تتراءى له تبشـيرًا، فيجـد عندها من مشاعر صدق الود والحنان ما يخفف من آثار ما عسى أن يكون قـد شـق عليه، فهل ثبت أنه ﷺ حدثهـا، أو هي قد عرفت من تغير أحوال أنسه ولطفه أنه قد حزن- بعد أن جاءته رسالة ربه، ونزلـت عليه آيات القـرآن الكريم، ثم فتر عنـه الوحي فترة- حزنًـا غدا منـه مرارًا إلى ذرا شـواهق الجبال ليرمي نفسـه من فوقها؟ كلا، لم يثبت، ولم يُروَ شيء من ذلك، وكانت السيدة خديجـة في مكانتهـا من حياته ﷺ أقرب النـاس وأجدرهم أن تعلـم من حالـه ﷺ ما يخفى على سـائر النـاس، وإذا لم يكن رسـول الله ﷺ قد تحدث إلى مأنسـه وزوجه الأمينة الوفية عن هـذا الحزن اليائـس المزعوم، حرصًا على شـعورها من صدمة هذا الحـزن المرير، فأين عُصبة أسـبق السـابقين إلى الإيمان برسالته ﷺ، الذين لم تكن لهم في إيمانهم كبوة نَظِرَةٍ(٩) ولا كان لهم تلبثُ لحظة:

الصديـق أبـو بكر، وعلي بـن أبي طالب، وزيد بـن حارثة، وسـواهم مـن الصفـوة الذين لازمـوا رسـول الله ﷺ ملازمة لا

(٩) النَّظِرة الإنظار أي التأخير. (المجلة)

يخفى عليهم معها من أمره وأحواله شيء، والبلاغ المزعوم يقول: إن فترة حزن اليائس قد طالت وتعدد فيها غدوه ﷺ إلى ذرا الشواهق ليلقي نفسه من فوقها.

فهل ثبت عن واحد من هؤلاء السابقين كلمة واحدة تشعر بشيء مما زعمه بلاغ الحزن اليائس؟!

إن أمر هذا البلاغ عجب من العجب لا يرويه أحد من أخص أخصاء السابقين الأولين ولا من جاء بعدهم في ملازمة رسول الله ﷺ، وبقي سرًا مكتومًا حتى جاء معمر وشيخه الزهري فكُشِف لهما حجابه وتبدّى لهما سرُّه!! إنه ﷺ لم يتحدث في حديث جابر حين تحدث عن فترة الوحي حتى عن مجرد حزن لحق به تأسفًا على هذه الفترة، بَلْه حزنًا غدا منه مرارًا إلى ذرا شواهق والجبال ليلقي نفسه من فوقها انتحارًا.

إن حديث جابر في فترة الوحي تُرى فيه أقرب المناسبات الأسلوبية للحديث عن الحزن على فتور الوحي، ففي قوله ﷺ: (ثم فتر عني الوحي فترة) مناسبةٌ لأن يقول- لو كان شيء مما زعم قد كان- فحزنت حزنًا شديدًا ضاقت عليَّ فيه نفسي حتى كدت أن(...) ولكن أنّى لشيء لم يكن قط أن يتحدث عنه أصدقُ الصادقين، ونحن لا نرى حرجًا أن يكون النبي ﷺ قد اعتراه شيء من الحزن في مدة فترة الوحي لانقطاع أنوار الشهود الروحي، ولا نرى حرجًا في أن النبي ﷺ كان يغدو إلى ذرا الجبال تطلعًا إلى آفاق أشواقه لتجليات أمين الوحي الذي

عهد لقاءه في هذه الذرا.

وغـدوّ النبي ﷺ إلـى أعالـي الجبال أمر محسـوس يمكن الحكـم بوقوعه لمن شـاهده ببصره، أما كون هـذا الغدوّ كان لقصـد أن يلقـي نفسـه من شـواهقها- كمـا هو زعـمُ البلاغ الكاذب- فأمرٌ باطني لا سبيل إلى معرفته إلا بالإِخبار عنه منه ﷺ، وهذا ما لم يثبت قط.

الخامـس: أن مـدة فتور الوحي -وهـي كما يجب أن تكون بمقتضى ما يفيـده التعبير عنها بفترة الوحي المفيد بمنطوقه ومضمونه أن الوحي سـبقها بالنزول، ثم توقف وفتر فترة، ثم نزل بعـد هذه الفترة وتتابع- هي الزمن الذي تأخر فيه الوحي عـن رسـول الله ﷺ بعد نزولـه عليه يقظـة في مفاجـأة الغار، ونـزول أوائل سـورة (اقرأ) وقبـل عوده إليـه وتتابعه، ونزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ أي هي زمن لم ينزل فيه الوحي، يقع بين زمنين، نـزل في كل زمن منهما وحي يقظـي بآيات من القرآن، فالزمن الأول الذي سـبق فترة الوحي وتوقفه هو الزمن الذي بدأت فيه الرسـالة بوحي اليقظة في مفاجأة الغـار، التي نزل فيها خمس آيات من أول سـورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ والزمن الثاني الذي تأخر عـن فترة الوحي، وعاد فيه وحمـي وتتابع، هو الزمن الذي بدأ فيه الأمر بالإِنذار والتشمير عن عزيمة النهوض والجد في تبليغ الرسالة، وقرع قلوب المشركين بزواجرها بنزول خمس آيات

من أول سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ (المدثر: ١، ٢). هذه المدة مختلف فيها اختلافًا غريبًا متباعد الأطراف عريض الأكناف، وهو اختلاف شمل مقدار زمنها، كثرة وقلة، وطولًا وقصرًا، وشمل تعيين وقتها، متى كانت.

زعم أن فترة الوحي هي السنون الثلاث التي وردت في مرسل الشعبي بعيد جدًا:

ومن أغرب وأبعد أطراف هذا الاختلاف القول بأن مدة فترة الوحي هي المدة التي وردت في مرسل الشعبي الذي خرّجه ابن سعد في الطبقات بطرق متعددة، تنتهي كلها إلى داود بن أبي هند، ورواه صاحب عيون الأثر ولم يذكر له إسنادًا، بل اكتفى بقوله: وعن الشعبي أن رسول الله ﷺ وكّل به إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحي، ثم وكّل به جبريل فجاءه بالقرآن.

وهذا القول الغريب البعيد في تحديد مدة فترة الوحي صرّح به القسطلاني في المواهب، ويؤخذ من قول ابن حجر في الفتح إذ يقول: وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين، وهي ما بين نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ونزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ عدم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ، بل المراد تأخر نزول القرآن فقط.

وابن حجر يسوق هذا الكلام للردّ على من ذهب إلى أن المراد بفترة الوحي عدم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ كما

جـاء مصرحـا به في حديث ابن عباس عند ابن سـعد من طريق الواقـدي، قال: إن رسـول الله ﷺ لما نـزل عليه الوحي بحراء مكث (أياما لا يرى جبريل).

بيـد أن ابـن حجـر لم يقتصـر في كلامـه على القـدر الذي يتضمـن الرد الذي يقصـده، ولكنه زاد في عبارتـه ذكر المدة المقدرة بثلاث سنين، وزاد تعيين وقت هذه المدة فقال: وهي ما بين نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ونزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.

وهـذا يفيد أن ابن حجر يرى أن مقـدار مدة فترة الوحي هو ثـلاث سـنين، ويفيـد أنه يرى أن وقـت هذه المدة هـو ما بين بدء الرسـالة بنزول أول سـورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ في مفاجأة الغار بوحي اليقظة، وبدء الأمر بالإنذار وتبليغ الرسـالة بنزول أول سـورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾.

ووجـه غرابة هذا القول وبعده أن مدة الثلاث سـنين لم ترد فيما نعلم، في غير مرسـل الشـعبي، وهذا المرسل صريح في أن هـذه المدة كانت فـي مبتدأ النبوة، قبل قصـة المفاجأة في الغار، ونزول أوائل سـورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ بزمن طويل، فهو يقول كما جـاء في رواية ابن سـعد: إن النبي ﷺ أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سـنة، فكان معه إسـرافيل ثلاث سنين ثم عزل عنه إسرافيل وأقرن به جبريل، وكما جاء في تاريخ الإمام أحمد عن الشـعبي: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته

إسـرافيل ثلاث سـنين وكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه [أي على لسان إسرافيل] ، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة، فقوله في رواية ابن سعد ثم عزل عنه إسـرافيل، وأقرن به جبريل صريح في أن قرن إسرافيل به ﷺ كان قبل قرن جبريل به، وقرن جبريل به بدأ بمفاجأة الغار التي ابتـدأ فيها إنزال القرآن، ويؤكد هذا قوله في رواية تاريخ أحمد بـن حنبـل: فلما مضت ثلاث سـنين قرن بنبوتـه جبريل عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة.

ومـن العجيب مع هذه النصوص الصريحة ما ذكره الزرقاني في شـرح المواهب تعليقا على قول القسطلاني مستدركا على ابـن القيم في ذكـر مراتب الوحي: لكنه - أي ابن القيم- (لم يذكر نزول إسرافيل إليه بكلمات من الوحي) فيقول الزرقاني: (بعدما أوحى إليه جبريل يأتيه بالكلمة من الوحي والشيء من الأفعـال والآداب التي يعلمـه إياها، كان بعد قـرن جبريل به، وبعد نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وهذا مخالف لصريح نص مرسل الشعبي، فلا ندري من أين أخذه الزرقاني؟

فهل هناك من ذهب إلى أن فترة الوحي -وهي كما يجب أن تكون، وكما عينها ابن حجر في عبارته- المدة التي بين نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ونزول سـورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ كانت ثلاث سـنين مثل

المدة التي وردت في مرسل الشعبي، ولكنها غيرها، ومتأخرة في الزمن عنها؟ وقول ابن حجر في عبارته: وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين -مَن قدرها بذلك؟- وهي ما بين نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ونزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ يشعر بأنها غير المدة المذكورة في مرسل الشعبي، وهي مختلفة معها زمنًا وموضوعًا وهذا مما يزيد في غرابة هذا القول وبعدها، ولا ندري من أين أخذه ابن حجر، وهو الإمام العلامة الثبت المؤمَّر في علم الحديث، وهو أجلّ من أن تذهب به خواطره إلى أن المدة المقدرة بثلاث سنين في مرسل الشعبي هي المدة التي كانت فيها فترة الوحي، وهي ما بين نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ونزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾؛ لأن مرسل الشعبي صريح في أن المدة المذكورة فيه كانت قطعًا قبل حادث الغار الذي نزلت فيه ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ بزمن طويل، وأنها كانت في مبتدأ النبوة كالتمهيد للرسالة، وأن الذي وكل بالنبي ﷺ فيها هو إسرافيل، كان يتراءى له، ويأتيه بالكلمة من الوحي، وذلك قبل أن يوكل به جبريل ويجيئه بالقرآن، فهل أخذ ابن حجر ذلك من صنيع الإمام السهيلي الذي قال عنه ابن حجر إنه قد جمع به المختلف في مكثه ﷺ بمكة، وقوله - أي السهيلي - إنه جاء في بعض الروايات المسندة أن فترة الوحي كانت سنتين ونصفًا، وفي رواية أخرى أن مدة الرؤيا ستة أشهر- فجمع مدة ما قيل في الفترة من أنها

سنتان ونصف إلى ما قيل في مدة الرؤيا الصادقة من أنها ستة أشهر، فخرج له - أي للسهيلي -ثلاث سنين، لكن هذا لا يفيد في توجيه كلام ابن حجر أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين كما هو صريح عبارته، لأن مدة الرؤيا الصادقة المقدرة في كلام السهيلي بستة أشهر كانت قطعًا قبل فترة الوحي بتحديد ابن حجر بزمن طويل باتفاق لا خلاف فيه.

والإمام السهيلي لم يقصد في صنيعه الذي جمع به المختلف في مكثه ﷺ بمكة إلى بيان مدة فترة الوحي، وهي التي كانت بين نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ونزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وأنها كانت ثلاث سنوات، كما في تقدير مدة مرسل الشعبي، فلا يزال التساؤل قائمًا، من أين أخذ ابن حجر هذا القول الغريب؟ لعل أحدًا من الباحثين يرشدنا إلى مأخذه، أو إلى حَلّ مُغلَقِه، وقد تبع القسطلاني في المواهب ابنَ حجر فقال: وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين، ونقل شارحه الزرقاني أقوالًا في مدة الفترة حكاها عن مغلطاي في الزهر، ففي تفسير ابن عباس أنها كانت أربعين يومًا، وفي تفسير ابن الجوزي ومعاني القرآن للزجاج أنها كانت خمسة عشر يومًا، وفي تفسير مقاتل أنها كانت ثلاثة أيام، قال مغلطاي: ولعل هذا هو الأشبه بحاله عند ربه.

وكأن ابن حجر تنبه إلى ما في كلامه من القلق، فقال: (فائدة) وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة

فترة الوحي كانت ثلاث سنين، وبه جزم ابن إسحق، ولعل ابن حجر يقصد بهذا القول ذكر مستند لقوله في عبارته السابقة عن فترة الوحي أنها المدة المقدرة بثلاث سنين، ولكنه رجع فقال: ثم راجعت المنقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد بن حنبل، ولفظه من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة، وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلّمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن بلسانه.

وهذا نص في أن المذكور في تاريخ الإمام أحمد عن الشعبي هو عين مرسله عند ابن سعد، وجميع طرقه عنده تنتهي إلى داود بن أبي هند كطريق الإمام أحمد في تاريخه مما يدل على أنه هو هو.

وإذا كان ذلك كذلك بطل النقل الذي قال عنه ابن حجر: (فائدة) وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي ثلاث سنين؛ لأن الثلاث سنين التي ذكرت في مرسل الشعبي ليست مدة فترة الوحي، بل هي مدة سابقة عليها بزمن طويل، كانت في مبتدأ النبوة، وكان الموكل فيها بالنبي ﷺ هو إسرافيل، ومدة فترة الوحي كانت بعد أن وكل به جبريل، وبعد أن نزلت عليه آيات القرآن بلسانه قبل مدة فترة الوحي وبعدها، ومما يؤكد بطلان نقل ما وقع في تاريخ أحمد بن حنبل، الذي ذكره ابن حجر على أنه (فائدة)، أن المنقول عن

الشعبي الذي راجعه ابن حجر من تاريخ أحمد بن حنبل ليس فيه عبارة: وجزم به ابن إسحق، التي جاءت في نص الفائدة التي ذكرها ابن حجر، ويزيده تأكيدًا أن ابن سيد الناس في كتابه (عيون الأثر) قال: وفتر الوحي فترة لم يذكر لها ابن إسحاق مدة معينة، وهذا ينفي أن يكون ابن إسحق جزم بأن مدة فترة الوحي ثلاث سنين، وابن سيد الناس من ثقات رواة السيرة النبوية، ومن أقعد مدونيها في تحقيق أحداثها.

فالمدة المذكورة في حديث الشعبي عند ابن سعد هي نفس المدة المذكورة في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي، كما ثبت في مراجعة ابن حجر للمنقول عن الشعبي عند الإمام أحمد في تاريخه، وهذه المدة لا مدخل لها مطلقًا في مدة فتور الوحي التي تحدث عنها بلاغ الحزن اليائس في رواية معمر عن الزهري.

وقد تنبه إلى ذلك ابن حجر فصحح الوضع في أن مدة الثلاث سنين المذكورة في مرسل الشعبي لا علاقة لها بقدر مدة الفترة، فقال بعد أن ساق مراجعته للمنقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد بن حنبل، الذي هو نفس مرسله عند ابن سعد: فيحسن بهذا المرسل - إن ثبت - الجمعُ بين القولين في قدر إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة، ولا يتعلق ذلك بقدر مدة الفترة.

ومما يثير العجب أن يشغل الباحثون من المحدّثين

شراحًا ورواة لأحداث السيرة النبوية عن تحقيق مدة فتور الوحي وقتًا وأمدًا، بتحقيق مدة إقامة النبي ﷺ بمكة بعد بعثه وقبل هجرته، وتحديد سنه يوم جاءته النبوة، وتحديد سني عمره المبارك من يوم ميلاده إلى يوم انتقاله للرفيق الأعلى، مما كان سببًا في اضطراب البحث في فتور الوحي، وهي فترة أحق بتحقيق البحث العليم تحقيقًا يقطع فيها دابر الاختلاف، ويضعها في مكانها من تاريخ الأحداث في السيرة النبوية؛ لأنها هي فترة الحدث الذي اكتنفته أبطولة بلاغ الحزن اليائس، وأحاطته بأسطورة غدوّ النبيِّ ﷺ مرارًا إلى أعالي شواهق الجبال ليرمي نفسه من ذراها انتحارًا لفتور الوحي عنه، خشية أن يكون هذا الفتور عقوبة من الله بسبب أمر مخالف وقع منه ﷺ، وهو لا يعلمه، ففعل ذلك بنفسه، كما يقول من لم ينكر بلاغ الحزن اليائس، فما كان ينبغي أن يطغى على بحثها وتحقيقها بحثُ وتحقيقُ سِنِّ النبيّ - ﷺ - يوم بُدِئ بالنبوة، وما يتصل بذلك من تحديد مدة إقامته ﷺ بمكة بعد المبعث وقبل الهجرة وتحديد سني عمره المبارك ﷺ، فيُشغِل محققي الباحثين من العلماء عن الوصول إلى كلمة الفصل فيها، ليظهر بتحقيقها مدى تخرّص المتخرصين على مقام النبوة وقدس الرسالة.

سن النبي ﷺ يوم بعث ومدة إقامته بمكة وجملة عمره المبارك:

ونحن لا ننكر أهمية وفائدة هذا البحث في سيرة محمد رسول الله ﷺ، وتحقق أحداثها، ولا يمكن أن يدور بخلدنا أن يخلو بحثنا من صورة لما قال علماؤنا في تحقيق سنّه ﷺ يوم بدأت نبوته بالرؤيا الصادقة، وهي أول مراتب وحي النبوة، وتحقيق مدة إقامته ﷺ بمكة بعد بعثه رسولاً إلى العالمين، وقبل هجرته من مكة إلى المدينة، وتحديد عمره المبارك منذ ولد ﷺ إلى أن فارق الدنيا إلى الرفيق الأعلى.. والاختلاف في سنه ﷺ يوم نُبّئ، وفي مدة إقامته بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة، وفي تحديد سني عمره المبارك غريب، متباعد الأقطار، ونحن نذكر في تحقيق رواياته هنا -استطرادًا- ما يوفق الله له.

فقد أخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي غالب الباهلي أنه شهد العلاء بن زياد العدوي، يسأل أنس بن مالك قال: يا أبا حمزة؟ بسنِّ أي الرجال كان رسول الله ﷺ إذ بعث؟ قال أنس: كان ابن أربعين سنة، قال العلاء بن زياد ثم كان ماذا؟ قال أنس: كان بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، قال: هذا قول أنس إنه كان بمكة عشر سنين، ولم يكن يقوله غيره، ودعوى أن هذا لم يكن يقوله غير أنس غير مسلّمة، فقد روي في البخاري عن عائشة وابن عباس في (باب وفاة النبي ﷺ) وأخرج هذا الحديث مسلم في صحيحه، فقال أنس فيه: بعثه

الله على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين.

فهذا الحديث صريح في تقرير أن البعث كان على رأس أربعين سنة من عمره ﷺ من يوم ميلاده، وهذا قول جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وغيرهم من السلف والخلف، قال السهيليُّ: هو الصحيح عن أهل السير والعلم بالأثر، وقال النووي: هو الصواب، وهو مروي في الصحيحين عن ابن عباس وأنس، وروي عن عطاء وابن المسيب، وجبير بن مطعم، وروي عن قباث بن أشيم الصحابي.

وقال ابن القيم في (الهدي): فلما كمل له أربعون سنة أشرقت عليه أنوار النبوّة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده.

مذاهب أخرى في ذلك غريبة بعيدة:

وخالف ذلك فريق من العلماء، اختلفت مذاهبهم، وافترقت كلمتهم، قال الزرقاني في شرحه (مواهب القسطلاني): وفي تاريخ يعقوب ابن سفيان وغيره عن مكحول أنه ﷺ بعث بعد اثنتين وأربعين سنة، وقال الواقدي، وابن عاصم، والدولابي: بعث ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وفي كتاب العتقي: بعث ﷺ وهو ابن خمس وأربعين سنة، قال بعض العلماء: وقول الواقدي ورفيقيه، وما في كتاب العتقي شاذّان، والثاني أشد شذوذًا.

وعند الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أنزل على النبي ﷺ

- أي القرآن - وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وعندنا أن هذا ليس قول الواقدي ورفيقيه؛ لأن ابن عباس قال: أنزل عليه، وهذا بلا شك إنزال القرآن، وهو قد ابتدأ بمفاجأة الغار ونزول (اقرأ) وهذا مسبوق بالنبوة التي بدأت بوحي الرؤيا الصادقة، وقد حدد هذه المدة السابقة على إنزال القرآن مرسل الشعبي بثلاث سنين، فيكون ابتداء النبوة على رأس الأربعين من سنّه ﷺ، وهذا موافق لحديث ابن عباس في الصحيحين، وهو قول الجمهور، أما قول الواقدي ورفيقيه فهو صريح بأن البعث كان وهو ابن ثلاث وأربعين، والبعث بإنزال النبوة كان قبل بدء الرسالة وإنزال القرآن الكريم.

أما تحديد مكثه ﷺ بمكة بعد بعثه وقبل هجرته، فقد اختلف فيه - أيضًا - اختلافًا عريضًا، لا يقل غرابة وبُعْدَ أطراف، عن الخلاف في سنه ﷺ يوم جاءته النبوة، ففي حديث أنس بن مالك عند مسلم وابن سعد: أنه ﷺ أقام بمكة عشر سنين - أي بعد ابتداء نبوته، وقبل هجرته - وهذا موافق لحديث ابن عباس عند الإمام أحمد، كما قدمناه في كلامنا على سنه ﷺ عند بعثه، وفيه: فمكث بمكة عشرًا، وموافق لحديث عائشة وابن عباس عند البخاري في باب (وفاة النبي ﷺ) وفيه: لبث بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وهو مخالف لحديث ابن عباس عند مسلم أنه ﷺ مكث بمكة خمس عشرة سنة، ومخالف لحديثه الآخر عند البخاري ومسلم الذي جاء فيه أنه

ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه.

وهذا قول جمهور العلماء من السلف والخلف، قال ابن حجر في الفتح: حديث ابن عباس: (فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة) أصحُّ مما عند أحمد من وجه آخر عنه: (أنزل على النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة)، فمكث بمكة عشرًا، وأصح مما أخرجه مسلم من وجه آخر عنه: أنه ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة.

وفي صحيح مسلم رواية أخرى غير الرواية التي يقصدها ابن حجر في كلامه، لكنها متفقة معها في التصريح بأن مدة إقامته ﷺ بمكة خمس عشرة سنة، وهي من رواية عمار مولى بني هاشم، قال: سألت ابن عباس: كم أتى لرسول الله ﷺ يوم مات؟ فقال: ما كنت أحسب مثلك من قومه يخفى عليه ذلك، قال: قلت: إني سألت الناس فاختلفوا عليّ فأحببت أن أعلم قولك فيه، قال: أتحسب؟ قال: قلت: نعم، قال: أمسك، أربعين بعث لها، خمس عشرة يأمن ويخاف، وعشرًا من مهاجره إلى المدينة. وقد وفق الطبري بين قول الجمهور وبين قول من قال: أقام بمكة بعد بعثه عشرًا، فقال: فلعل الذين قالوا: كان مقامه بمكة بعد الوحي عشرًا عدوا مقامه بها من حين أتاه جبريل بالوحي من الله عز وجل، وأظهر الدعاء إلى توحيد الله، وعدّ الذين قالوا: كان مقامه ثلاث عشرة سنة من أول الوقت الذي استنبئ فيه وكان إسرافيل المقرون به، وهي

السنون الثلاث التي لم يكن أمر فيها بإظهار الدعوة.

والخلاف في تحديد عمره المبارك ﷺ من ميلاده إلى أن فارق الدنيا وانتقل إلى الرفيق الأعلى، متفرع على الخلاف السابق في موضعين - أي في تقدير سنه يوم نُبّئ، وتقدير مدة إقامته بمكة - ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك روايتان مختلفتان، إحداهما تقول: وتوفاه الله على رأس ستين سنة، والثانية تقول: قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة، وهذه الرواية الثانية موافقة لما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري قالت: إن رسول الله ﷺ توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وموافقة لحديث ابن عباس برواية عكرمة عند البخاري: قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة - أي من ميلاده - فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين - أي أقام مهاجرًا عشر سنين - ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة، وموافق لحديث ابن عباس -أيضًا- برواية عمرو بن دينار عند البخاري، قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال ابن حجر في الفتح: وهذا موافق لقول الجمهور، ثم قال ابن حجر: والحاصل أنّ كل من رُوي عنه من الصحابة ما يخالف المشهور، وهو ثلاث وستون جاء عنه المشهور، وهم ابن عباس، وعائشة، وأنس، ولم يختلف على معاوية أنه

عاش ثلاثًا وستين، وبه جزم سعيد بن المسيب، والشعبي، ومجاهد، وقال الإمام أحمد: هو الثبت عندنا. (ثم قال ابن حجر: وأكثر ما قيل في عمره أنه خمس وستون سنة أخرجه مسلم من طريق عمار بن أبي عمار عن ابن عباس، ومثله لأحمد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس، قال: قبض النبي ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة.

والقول بأن النبي ﷺ عاش خمسًا وستين سنة كثرت روايته، عن ابن عباس، وتعددت طرقه، وهي طرق صحيحة ففي مسند الإمام أحمد من رواية حماد بن سلمة، قال: أخبرنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال: أقام النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة، سبع سنين يرى الضوء والنور، ويسمع الصوت، وثماني سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشرًا، فإذا أضيف إلى ذلك أربعون سنة من ميلاده، بعث على رأسها كان جملة عمره المبارك خمسًا وستين سنة، وفي المسند أيضًا من رواية خالد الحذاء عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة.

وفي المسند أيضًا من رواية يونس بن عبيد عن عمار بن أبي عمار قال: سألت ابن عباس: كم أتى لرسول الله ﷺ يوم مات؟ قال ابن عباس: ما كنت أرى مثلك في قومه يخفى عليه ذلك؟ قال عمّار: قلت: إني قد سألت الناس فاختلف عليّ، فأحببت أن أعلم قولك فيه، قال ابن عباس: أتحسب؟ قلت:

نعم، قال: أمسك، أربعين بعث لها، وخمس عشرة أقام بمكة يأمن ويخاف، وعشرًا مهاجرًا بالمدينة.

وهذا الحديث من أبين الأدلة وأقواها في أن جملة عمره المبارك ﷺ في هذه الدنيا خمس وستون سنة، فهو صحيح السند، وفي أسلوبه ما يشعر بأنه كان أمرًا متعالمًا معروفًا، لا يخفى على مثل عمار في قومه، وفي أسلوبه ما يفيد أن عمارًا كان حفيّا بهذا الأمر، حريصًا على معرفته، فهو قد سأل أهل العلم فاختلفوا عليه، فأحب أن يعرف قول ابن عباس فيه، وابن عباس من أقوم قومه بالعلم والمعرفة، ولاسيما فيما يخص شأن النبي ﷺ في أمر قد يكون أهل بيته أعرف به وأقوم.

وقد تعددت طرق هذا الحديث في مسند أحمد، ورواه مسلم في صحيحه، فالقول به قول ينافس قول الجمهور في الصحة والقبول، وهو أقوى من قول أنس بن مالك في إحدى الروايتين عنه عند مسلم، من أن النبي ﷺ عاش ستين سنة الذي اقتصر عليه ابن سيد الناس في (عيون الأثر)، فقال بسنده إلى الأوزاعي قال: حدثني ربيعة بن أبي عبدالرحمن، قال: حدثني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بعث على رأس الأربعين وقبض على رأس الستين، وما في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

وشذ قوم ذهبوا إلى أن عمر النبي ﷺ لم يبلغ ثلاثًا وستين سنة، وهؤلاء اختلفوا، فقالت طائفة: إنه ﷺ عاش اثنتين وستين سنة ونصفًا كما أخرجه ابن عساكر، وقالت طائفة

أخرى كما روي عن عمر بن شبَّة: أنه ﷺ عاش إحدى أو اثنتين وستين سنة، ولم يعوِّل الأئمة من السلف والخلف على هذه الأقوال لضعف رواياتها.

هذا الاختلاف أثر من آثار البيئة العربية قبل الإسلام:

وهذا الاختلاف الكثير مترامي الأطراف - الذي صورته الأقوال والمذاهب والروايات المتعددة في تحديد مقدار عمر النبي ﷺ، وتحديد مدة إقامته بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة، وتحديد سنّه ﷺ يوم أن جاءته النبوة، من كلّ ما دعت المناسبة للاستطراد بذكره - نجده في أكثر الحوادث التي وقعت في حياته ﷺ منذ ميلاده إلى أن استقرت دعوته في المدينة المنورة، حيث بدأت حياة المجتمع الإسلامي تأخذ سمتًا جديدًا من النظام الاجتماعي المترابط بوشائج الحقوق والواجبات، ذلك النظام الذي اقتضى تمييز الحقائق بأوقاتها وآمادها، وضبط الحوادث وتاريخ الوقائع بالكتابة أو ربطها بالمناسبات الكبرى التي لا تنسى، وقد تدرج ذلك في مدارج الدعوة وأحداثها ووقائعها ومن ثَمَّ عني الناس بضبط الوقائع وتأريخها، فقلّت الخلافات، وأمكن الترجيح عند وجودها.

وواضح أن السبب الأقوى في كثرة الاختلاف، واتساع أطرافه بين الرواة ونقلة الحوادث قبل استقرار حياة المجتمع الإسلامي بالمدينة المنورة هو ما كان معروفًا من طبيعة الأمة

العربية في جاهليتها من عدم عنايتها بتسجيل الحوادث كتابة اعتمادًا على ما وهبها الله من قوة الحفظ ونصاعة الذاكرة، فهي أمة أمية، لا تكتب ولا تقرأ، ولا تحسب، ولم تعرف لها أثارة من علم إلا ما كان موروثًا بالتجارب.

وقد تكاثرت عليها الوقائع والأحداث بمجيء الدعوة الإسلامية التي أذهلتها وأحدثت في حياتها جوًا من الجذب والشد وعنف الحركة فكريًا وماديًا، فاضطرب حبل الرواية ونقل الحديث، وعسر ضبط الحوادث وتاريخها التي لم يخبر عنها رسول الله ﷺ، أما ما ثبت إخباره ﷺ عنه فهو كما أخبر عنه، ومثاله إخباره ﷺ عن يوم ولادته، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ سُئل عن صوم يوم الاثنين فقال: (فيه ولدت، وفيه أنزل عليّ) فهذا نص صريح من أصح رواية عن تعيين يوم مولده ﷺ وهو - مما يغلب على الظن- أنه من قبل الوحي فلا مجال فيه لرأي أحد من الناس.

ما ذكر في مرسل الشعبي لا يصلح أن يكون هو مدة فتور الوحي:

وقد بينا بما لا يدع مجالًا للشك أن مدة السنين الثلاث المذكورة في مرسل الشعبي لا تصلح أن تكون هي مدة فترة الوحي المقصودة في بلاغ الحزن اليائس، كما يُفهم من صنيع الإمام السهيلي في جمعه بين مختلف الأقوال في تحديد مدة

إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة، وكما يُفهم من كلام ابن حجر ونقاشه مع السهيلي.

وقد أشـرنا إلى ما قد يبدو في كلام ابن حجر من التضارب، وبينـا أنه تنبه إلى ذلك وصرّح بأن المدة المذكورة في مرسـل الشعبي لا علاقة لها بقدر مدة فتور الوحي.

فالتحقيق أن مدة فتـور الوحي التي كانت بين نزول (اقرأ) ونـزول (يا أيها المدثر) كانت (أيامًا) كما يظهر من ميل ابن حجـر إليه، بل جزم به في تفسـير سـورة (والضحى) إذ قال: والحـق أن الفترة المذكورة في سـبب نـزول (والضحى) غير الفتـرة المذكورة في ابتـداء الوحي فإن تلك دامت أيامًا، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثًا، مسـتدلًا بحديث ابن عباس عن ابن سعد الذي جاء فيه نحو ما جاء في بلاغ الزهري.

ونحن لم نسـلّم بهذا الحديث، وناقشـناه كما ناقشنا بلاغ الزهري إنكارًا لما جـاء فيه من أبطولة الحزن اليائس وما رُتّب عليها من أسطورة التردي من شواهق الجبال.

بيـد أن عدم تسـليمنا لـه لا يمنع من ترجيحنـا لجنوح ابن حجـر إلى أن مدة فترة الوحي كانـت (أيامًا)، بقطع النظر عن تمسُّـكه في الاسـتدلال بهذا الحديث، وأنها كانت قطعًا بعد مفاجـأة جبريـل للنبـي ﷺ في غار حـراء ونزول أوائل سـورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وقبل نزول أوائل سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.

والتعبير عن مدة فتور الوحي بأنها (أيام) ظاهر في إفادة تقليل المدة التي كانت زمنًا لفتور الوحي، كما يدل لذلك ويؤكده ما جاء في حديث جابر عند مسلم من قول النبي ﷺ: (ثم فتر عني -أي الوحي- فترة) فتأكيد الفعل بمصدره المنكر ظاهر في تقليل مدة الفترة.

تقليل مدة فتور الوحي هو المناسب لحكمتها الصحيحة

وإذا كانت مدة فتور الوحي فيما حققناه، وفيما جنح إليه ابن حجر، ودل عليه صراحة حديث ابن عباس، وأكده حديث جابر، لا تعدو أن تكون (أيامًا)؛ فهي بمعزل عن الطول الذي يحمل على الحزن اليائس ويدفع إلى محاولة قتل النفس بصورة يتأبّى القلم عن وصفها، وهي أبعد من أن تبلغ هذا الطول، ولو كانت قد بلغته لكان الأقرب في التعبير عنه التصريح به ليكون أوفى بالتحديد والتقدير.

وإذا كانت مدة فتور الوحي في الاحتمال القريب الراجح أقل من أن تبلغ شهرًا فهي أبعد من أن يقال فيها: (فإذا طالت عليه فترة الوحي) كما جاء في بلاغ معمر عن الزهري، وإذا بعدت عن استئهال وصفها بالطول فقد بعد جدّا أن تبلغ الرغبة في تتابع الوحي بالنبي ﷺ حتى لا يفتر عنه (أيامًا) أن يحزن حزنًا يملؤه يأسًا، حتى يغدو مرارًا إلى ذرا شواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها.

بلاغ الحزن اليائس يقلب حكمة الله في التلطف بنبيه ﷺ

ومن أعجب العجب أن يقلب هذا البلاغ حكمة الله تعالى في فتور الوحي، وتلطفه بنبيه وحبيبه ﷺ ليجم نفسه، ويريح مشاعره وحواسه، ويمسح عنه آثار روع المفاجأة التي رجف منها فؤاده، وليزيده قوة في روحانيته، بما يعتلج بقلبه من التشوف وشدة الشوق إلى مطالع أنوار الملكوت وسبحات الشهود - إلى مأساة حزينة محزنة، وعقوبة قاصمة باخعة.

وقد يتساءل متساءل: هل روي أن النبي ﷺ حاول مثل هذه المحاولة بطريقة أخرى غير طريقة التردي من شواهق الجبال؟

على شدة جهد البحث لم أعثر على شيء من ذلك في رواية صحيحة أو ضعيفة، وهنا يأتي تساؤل آخر: فلماذا إذن هذا التصميم على هذه الطريقة؟ ولماذا استمر الاستمساك بها دون غيرها من المحاولات إذا كان القصد هو التخلص من الحياة حزنًا على فتور الوحي؟ وهذا يؤكد أنه لم يقع شيء من ذلك قط، وأن بلاغها أكذوبة باطلة.

السادس - كيف تبقى دوافع العزيمة على التردي من شواهق الجبال قائمة في نفس رسول الله ﷺ بعد أن تبدّى له أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو يقول له: يا محمد إنك

رسول الله حقّا، فيسكن جأشه، وتقر نفسه، فيرجع عما كان قد عزم عليه من قاصمة عصمة النبوة، ومبددة معالم الإيمان بها، ثم يقال بعد ذلك في بلاغ الحزن اليائس: فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك؟

أفما كان يكفي للقضاء نهائيًا على دوافع عزيمة التردي من شواهق الجبال - لو كان لهذه العزيمة وجود في واقع حياة رسول الله ﷺ - تبدّي جبريل في عظمة روحانيته، وجلال ملائكيته، ومقامه في الملأ الأعلى، وما أوتيه من قدرة التشكل في صور التجليات العظمى، وهو يقول لسيد الوجود: يا محمد، إنك رسول الله حقّا وأنا جبريل، ورسول الله ﷺ كان على أكمل اليقين في معرفته بعد مفاجأة الغار، وإنزال آيات القرآن، ولكن بلاغ الحزن اليائس لا يرى ذلك كافيا، بل يمضي في نسج خيوط الأبطولة فيقول: فإذا طالت على رسول الله ﷺ فترة الوحي غدا إلى ذرا الشواهق ليلقي نفسه من فوقها، ويدركه الأمين جبريل مرة أخرى، ويتبدّى له بصورته الملائكية العظمى قائلًا: يا محمد، إنك رسول الله حقّا، وأنا جبريل، حتى عاد الوحي وتتابع.

ماذا يسمى كل هذا في شرعة الإيمان؟ بَلْه في حق النبوة وقدرِ الرسالة حق قدرها؟

أف للعقول التي لا ترتفع بإيمانها عن حضيض سبخات الأرض التي لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء؛ وأُفٍّ للقلوب التي

لا ترى عنوان كمال النبوة إلا على نويسة فتائل مصابيح العقول التي نفد زيتها[١٠]، فهي تمتص عصارة ما علق في خيط الفتائل، وتمضي إلى حيث تلفظ آخر برقة في حياتها مستسلمة لأحضان الظلام في محيط الفناء.

لست أدري كيف أدخل إمام الدنيا في علم الحديث وفقهه، وتعمّق أسراره الإمام محمد بن إسماعيل البخاري هذا البلاغ المعمري الزهري في جامعه، أصح جوامع الحديث، وأقوم دواوين السنة؟!

هل كان ذلك لمجرد الثقة بالإمام العليم محمد بن شهاب الزهري، وتلميذه معمر، وهما أهل للثقة في سعة حفظهما وضبطهما لما يرويانه مسندًا، بيد أنهما لم يسندا هذا البلاغ؟

ولكن ألا كان في فقه البخاري، وغوصه على أسرار الحديث النبوي، وتبحره في معرفة نصوصه ومتونه، وما يمكن أن يكون قد دخل فيها من الوهل والوهم على بعض الرواة، مهما يكن شأنهم في سعة الحفظ والضبط، وهم غير معصومين من الخطأ والغلط والسهو والالتباس- ما يقف حاجزًا دون إدخاله هذا البلاغ في جامعه العظيم، الذي اتخذته الأمة الإسلامية كلها في مشارق الأرض ومغاربها، إمامًا في دينها، ومعرفة

(١٠) النويسة فتيلة تجعل في قدح فيه مادة محترقة، يستنار بها ليلا، ويقال لها في الدارجة المصرية (نواسة أو وناسة). (المجلة)

وقائع وأحداث حياة نبيها، خاتم النبيين محمد ﷺ من أوثق طريق؟

وقد أوضحنا بإسهاب الأدلة والبراهين التي توجب إنكار أن يكون مضمون هذا البلاغ قد وقع أصلًا في حياة الرسالة الخالدة الخاتمة، رسالة سيد الخلق محمد ﷺ.

فسبحان من تفرّد بالكمال المطلق، ربنا الله الملِك الحق المبين، وسبحان من خص أنبياءه ورسله وأصفياءه بالعصمة أن يقع منهم أو لهم في نبوتهم ورسالاتهم ما يمس جلال يقينهم ورسوخ إيمانهم بما أوتوا من ربهم.

وسبحان من خص سيد المرسلين وخاتم النبيين بكمال الروحانية في رسالته الخالدة، فكشف له بهذا الكمال ما أشهده من حقائق آيات الله في الكون، وعصمه في روحانيته من زلق الدهش وحيرة المفاجأة، وثبّت فؤاده لتلقي كلمات الله العلي الأعلى، وأثنى عليه بكمال ما أدّبه ثناءً لم ينله غيره من الأنبياء والمرسلين، فقال جل شأنه يصف ما كمله به من أدب الشهود:

﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾

(النجم: ١٧، ١٨)

وليس لاختلاف الزمن في جلال النبوة وقدس الرسالة وزنٌ يجعل أولها غير آخرها في عصمة اليقين ورسوخ الإيمان،

ومهمــة التبليغ ووجــوب المتابعة؛ لأن النبــوة قبس من ومض الاصطفاء الإلهي، يبدو في مشــرقه خفيًا، ثم يتبدّى في إشراقه نورًا مبينًا، لا يختلف في حقيقته مبتداه عن منتهاه.

وكبوة الأكابر لا علاج لها، وعثرتهم قاصمة الظهر، وزلتهم مزلقة الســالكين، ومدحضة الوارديــن، أمرنا باتقائها، فاللهم غفرًا.

وكان مــن طلائــع البداهة أن يشــعر أولو العلــم والفكر من باحثي الإسلام بما في هذا البلاغ الزائف من خطر مدمر لدعائم الإيمــان، ولكنهم كعّوا عن إنــكاره وإبطاله تهيبًا لِمسّ هالات الأكابر[11]، وهم يتصورون ما يخلفه وراءه من مطاعن في أصل أصول الإيمان في النبوة، وعصمة الأنبياء في الرسالات الإلهية والإيمــان بها، فــي النبــي ﷺ وتصديقه في دعوته أنه رســول الله أرســله بالهدى ودين الحــق، بل في إيمانه هو ﷺ بدعوته، وتصديقه نفســه في رسالته، بل لقد انتهض فريق منهم للدفاع عــن هذا البلاغ الزائــف وما جاء فيه من تقحُّم على حمى النبوة وقدس الرســالة، نبوة محمد خاتم النبيين، ورسالة محمد سيد المرسلين ﷺ.

وقد حمل لواء هذا الدفاع أبو بكر الإســماعيلي الجرجاني، وقد سبقت لنا معه جولة طويلة في موقفه من تفسير (الخشية)

(١١) كعّ تلكأ وجبن. انظر العين. (المجلة)

التي وردت في قول النبي ﷺ لخديجة: (أي خديجة، مالي؟ قد خشيت على نفسي) تفسيرًا يستوجب الشك والارتياب عند النبي ﷺ في نبوته ورسالته حتى احتاج إلى أن يشكو إلى خديجة حاله لتثبته، واحتاج إلى سماع كلام ورقة ليوقن بالحق ويعترف به.

إن هذا الشك- كما يقول الإسماعيلي في تصويره لتمويه الطاعنين بزعمه- إذا جاز في حقّ النبي ﷺ مع معاينته للوحي ونزول القرآن عليه، فهو في حق غيره من المؤمنين والكافرين ممن لم يعاينوا معاينته، ولم يشاهدوا مشاهدته، أحرى بالجواز، وكان على الإسماعيلي أن يقول:

بل هو أحرى أن يفتن الناس، ويفسد عقائدهم، ويرعبل رغبات الراغبين في الإيمان، بل هو أحرى أن يعجز العقل عن تقبل الإيمان بصاحب هذا الشك الذي يشك في أمر نفسه، وأحرى أن يعجز المنطق عن قدرة الدفاع عنه، وأحرى أن يفتح للملحدين أبواب الطعن في أعظم دعائم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي أصول الديانات السماوية كلها، بل هو أحرى أن ينسف أصول الإيمان نسفًا لا يُبْقي منها ولا يذر.

شمّر أبو بكر الإسماعيلي للدفاع عن تفسير (الخشية) المريب المتقحم، وعن الدفاع عن بلاغ الحزن اليائس في كلام ساقه ابن حجر في الفتح، وقد استوفينا الرد على الإسماعيلي،

وبهرجة مزاعمه في توجيه تفسير الخشية المتقحم- فيما سبق- بيد أن كلامه الذي ساقه ابن حجر تضمن تصويرًا لتمويه الطاعنين على المحدّثين في رواياتهم مثل هذا البلاغ الباطل، وفي إقحامهم تفسيرات باطلة على كلمات رويت عن النبي ﷺ ولكن هذا التصوير الذي سماه الإسماعيلي (تمويهًا) لم يلق من أبي بكر الإسماعيلي إلا ردًا متهافتًا، يتهاوى على نفسه ضعفًا وفسادًا.

وقد رأينا استكمالًا للبحث أن نعرض لبيان تهافت كلامه وفساده، وأن نسوق عبارته كما ذكرها ابن حجر، ثم نبين زيفها وتهافتها، وما فيها من المغالطة بضرب الأمثلة التي لا تستقيم مع الموضوع، حتى لا يفتن بها من يطلع عليها من المؤمنين والملحدين؛ لأن الأمر أمر النبوة، نبوة سيد الخلق نبينا محمد ﷺ فلا يحتمل السلبية ولا المجاملة من أجل هالات فوق أسماء الرجال.

قال الإسماعيلي: موّه بعض الطاعنين على المحدّثين، فقال: كيف يجوز للنبي أن يرتاب في نبوته حتى يرجع إلى ورقة، ويشكو لخديجة ما يخشاه، وحتى يوفي بذروة جبل ليلقي منها نفسه على ما جاء في رواية معمر، ثم قال الإسماعيلي: ولئن جاز أنه يرتاب مع معاينة النازل عليه من ربه، فكيف ينكر على من ارتاب فيما جاءه به مع عدم المعاينة؟

قال الإسماعيلي: والجواب أن عادة الله جرت بأن الأمر

الجليل إذ قضي بإيصاله إلى الخلق أن يقدمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبي ﷺ من الرؤيا الصادقة، ومحبة الخلوة والتعبّد من ذلك، فلما فجئه الملك فجئةً بغتة أمر خالف العادة والمألوف(١٢)، فنفر طبعه البشري منه، وهاله ذلك ولم يتمكن من التأمل في تلك الحال؛ لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها، فلا يتعجب أن يجزع مما لم يألفه وينفر طبعه منه، حتى إذا تدرج عليه وألفه استمرّ عليه، فلذلك رجع إلى أهله التي ألف تأنيسها له فأعلمها بما وقع له، فهونت عليه خشيته بما عرفته من أخلاقه الكريمة، وطريقته الحسنة، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة لمعرفتها بصدقه ومعرفته وقراءته الكتب القديمة، فلما سمع كلامه أيقن بالحق واعترف به، ثم كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي، ليتدرج فيه، ويمرن عليه، فشق عليه فتوره إذ لم يكن خوطب عن الله بعدُ: إنك رسول من الله ومبعوث إلى عباده، فأشفق أن يكون ذلك أمر بديً به، ثم لم يرد استتمامه، فحزن لذلك حتى تدرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على نقل ما يرد عليه فتح الله له من أمره بما فتح.

ثم قال الإسماعيلي: ومثال ما وقع له في أول ما خوطب، ولم يتحقق الحال على جليتها، مثل رجل سمع آخر يقول:

---

(١٢) فاجأت الرجل مفاجأة وفجئه الأمر يفجأه فجأ: بغته. انظر جمهرة اللغة. (المجلة)

الحمـد لله، فلم يتحقق أنه يقرأ، حتى إذا وصلها بما بعدها من الآيات تحقق أنه يقرأ.

وكذا لو سمع قائلًا يقول: خلت الديار، لم يتحقق أنه ينشد شعرًا، حتى يقول: محلها ومقامها.

ثم قال الإسـماعيلي: وأما إرادته- أي النبي ﷺ إلقاء نفسه مـن رءوس الجبال بعدما نبئ فلضعف قوته عن تحمّل ما حمله مـن أعباء النبوة، وخوفًا مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعًا، كما يطلب الرجل الراحة من غمٍّ يناله في العاجل بمـا يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسـه عاجلًا، حتى إذا تفكّر فيما فيه صبره على ذلك من العقبى المحمودة، صبر واستقرت نفسه.

نظرونقد

الناظر في كلام أبي بكر الإسماعيلي- وتصويره لطعن الطاعنين، الذي سمّاه تمويهًا على المحدّثين في روايتهم لهذا البلاغ اللصيق بالسيرة النبوية العطرة، وذكره تفسيرهم بعض كلمات وردت في بعض الأحاديث كتفسير المراد من كلمة (خشيت على نفسي) في حديث عائشة رضي الله عنها، بما تقحموه من معنى مستبشع فاسد مفسد، وإجابته عن طعن الطاعنين في المحدّثين- يرى بشيء من التأمل المحكم المنصف أن هذا الطعن الذي نسج خيوطه أبو بكر الإسماعيلي في صورته المعبّرة، يصوّر شيئًا من بعض ما يجول في حنايا أفكار أعداء الإسلام من الملاحدة، وأحلاس الوثنية العصرية، ويصوِّر شيئًا من تفاهة التفكير عند ضعفاء الإيمان الذين قالوا آمنا بأفواههم وراثة (جغرافية)، ولم تؤمن قلوبهم إلا إيمان جهالة بحقيقة الإسلام، وهم الكثرة الغامرة من مثقفي شباب المسلمين، ثقافة لا تعرف عن الإسلام إلا صورة شوهاء، محرفة بالأساطير والخرافات، مغلفة بالأضاليل والأباطيل.

ويصوّر شيئًا من الألم الممض الكظيم في أنفس صادقي الإيمان من الغُيُر على كرامة الغر الميامين، الغطارفة البهاليل من أئمة المحدّثين، حماة السنة المطهرة، ومدارِه الشريعة المكرمة الذين عرّضهم بعض من حفظوا بعض تراثهم، ولم

يتفقهوا فيه فقههم، فقالوا وتخرصوا وتقحموا، وأبوا إلا أن تكون أقوالهم وتفسيراتهم ورواياتهم التي لم تُسند، سنةً من السنة يجب قبولها وعدم التردد في الاطمئنان إليها.

ويرى الناظر بشيء من التأمل العليم المؤمن أن إجابة أبي بكر الإسماعيلي عن هذا الطعن الذي سمّاه تمويها ضعيفة متهافتة، لا تصلح أن تكون ردًّا على ما صوّره الإسماعيلي نفسه من مآخذ فيما فرضه كلامًا للطاعنين على المحدّثين، وذلك من وجوه:

الأول: أن تصوير أبي بكر الإسماعيلي لمطاعن الطاعنين على المحدّثين قد اكتسب قوة من واقع ما اكتسبته تلك المطاعن من قوة الإلزام للذين أقحموا على حمى السيرة النبوية المطهرة في مطالع اختصاصها بجلال النبوة وقدس الرسالة، تلك التخرّصات في بلاغ الحزن اليائس، وفي تفسير (الخشية) بما يجب أن تُنزَّه ساحة النبي ﷺ عن حَوَمان مثله حول حصنها المنيع، ولا سيما في بلج صبحها، ومشرق نورها، فهو تصوير واقعي محكم، لا أثر للتمويه فيه؛ لأنه يمثل ما يهجم على العقول والقلوب بمجرد الشعور فيما يأتي:

أ- أن يكون النبي ﷺ وقد اصطفاه الله لنبوته ورسالته و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ (الأنعام: ١٢٤)

بمعرض الضعف النفسي إلى درجة أن يخاف أن يكون كاهنًا أو مجنونًا، عقب أشرف لحظة مرت على إنسان في الوجود، لحظة لقاء ملك الوحي في مفاجأة الغار، ونزول آيات القرآن الكريم في هذا اللقاء، وبعد أن يتبدى له الروح الأمين مخاطبًا مرتين قائلا: يا محمد!! أنت رسول الله، وأنا جبريل، وذلك قبل أن يرجع إلى أهله، ويخبرهم بما حدث له من الشرف العظيم، فلا يكفيه ذلك كله في التثبيت وحصول الإيقان بالحق، والاعتراف به، بل يحتاج إلى أن يشكو حاله إلى خديجة، فتهوّن عليه خشيته، وتستظهر لهذا التهوين بكلام ورقة الذي يسمعه النبي ﷺ منه، وعندئذ- فقط- يوقن بالحق، ويعترف به، كما يقول أبو بكر الإسماعيلي في جوابه عن مطاعن الطاعنين على المحدّثين.

هذا من أعجب العجب، وأغرب ما يطلب إلى العقول أن تقبله وتصدق بوقوعه في حياة سيد الخلق محمد ﷺ وهو أمر ظاهر البطلان مظلم الأفق، لا يحتاج إلى نقاش لو تخلت بعض العقول عن تعصب التفكير الطائفي في تخصصات العلوم والأفكار.

فهل كان كلام ورقة أعظم أثرًا في إيجاد الإيقان وتحصيله للنبي ﷺ واعترافه بالحق من وحي النبوة بالرؤيا الصادقة، وما صحبها وتتابع بعدها من الآيات والإرهاصات ومراتب الوحي، ونزول القرآن، واستعلان أمين الوحي، ومخاطبته لرسول الله

ﷺ جهرة مشافهة بأنه رسول الله، وقد أخبر النبي ﷺ خديجة باستعلانه له بعد رؤياه في منامه، فقال لها: (أرأيتك الذي كنت أحدثك أني رأيته فإنه جبريل قد استعلن).

وبهذه القوة الإلزامية التي اكتسبها تصوير أبي بكر الإسماعيلي لمطاعن الطاعنين على المحدّثين كان تصويرا لا أثر فيه للتمويه، بل كان تصويرا واقعيا يمثّل ما يهجم على العقول والقلوب بمجرد الشعور:

ب- إن تصوير الإسماعيلي يقتضي أن رسول الله ﷺ حزن لفتور الوحي حزنًا ملأه يأسًا كظيمًا مغلقًا، دفعه إلى أن يغدو مرارًا إلى شواهق الجبال لكي يتردّى من فوق ذراها تخلّصًا من حياته الحزينة اليائسة، ويتبدّى له جبريل كلما أوفى بذروة جبل بعظمة خلقه الملائكي، وجلال روحانيته العليا، التي لا يمكن أن يشتبه بها الشيطان ليُلَبِّس على النبي ﷺ أمره.

ولم يقتصر تبدّي جبريل على مجرد ظهوره، بل إنه يخاطب النبي ﷺ قائلا: يا محمد!! إنك رسول الله، فيرجع رسول الله ﷺ عما كان قد عقد عليه عزمته ليقتل نفسه بالصورة التي رسمها بلاغ الحزن اليائس، ولكن رسول الله ﷺ لا يجد- على ما زعمه الإسماعيلي- في تبدّي جبريل ومخاطبته في علانية وصراحة بأنه رسول الله- الإيقان والاعتراف بالحق الذي جاءه من عند ربه، اعترافًا وإيقانًا يمنعانه من معاودة العزيمة على التردّي من قمم الشواهق إذا طالت عليه فترة الوحي- في زعم

قائليهــا- فيتبدّى له جبريل مرة أخــرى، ويقول له: يا محمد إنك رسول الله.

وعبــارة بلاغ الحزن اليائــس تقتضي بنصها الصريح تكرار الغُدُوّ إلى شــواهق الجبال للتردي مــن فوقها، وتقتضي تكرار تبــدّي جبريــل للنبي ﷺ ومخاطبته بأنه رســول الله، فكم مرة غدا رسول الله إلى الشواهق كي يتردّى من ذراها ليقتل نفسه؟ وكم مرة تبدّي له جبريل وخاطبه بأنه رسول الله؟ وفترة الوحي طويلة، طويلة في زعم بلاغ الحزن اليائس، فبكم يوم أو شــهر أو ســنة يقدر طولها، والنبي ﷺ فيهــا يغدو على تطاولها إلى شــواهق الجبال ليرمي نفســه من أعاليها؟ وكم مــرة تبدّى له جبريــل وهــو يخاطبه: يــا محمد إنك رســول الله؟! ومع ذلك كلــه- في زعم بــلاغ الحــزن اليائس- لا يجد رســول الله ﷺ الإيقــان الذي يبدد من نفســه الشــك في نبوتــه، وفي تصديق أميــن الوحي في قوله مرارًا له: إنك رســول الله، وكان رســول الله ﷺ قد وجد الإيقان واعترف بالحق حين سمع كلام ورقة- كما يقول أبو بكر الإســماعيلي في إجابته عن طعن الطاعنين على المحدّثين.

وأين ذهب هذا الإيقان والاعتراف بالحق الذي حصل للنبي ﷺ عقــب ســماعه كلام ورقة الذي لم ينشــب أن توفي- كما فــي حديث البخــاري- فلم يدرك فترة الوحــي التي كانت بعد وفاتــه قطعًــا، كما يــدل على ذلــك نص حديث عائشــة الذي

ألصق به بلاغ الحزن اليائس إلصاقًا غريبًا، في قوله: ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي، وهذا صريح في أن فترة الوحي كانت بعد وفاة ورقة، وبعد أن حصل للنبي ﷺ الإيقان والاعتراف بالحق بسماع كلام ورقة، وفترة الوحي المتأخرة عن حصول الإيقان والاعتراف بالحق هي التي زعم فيها بلاغ الحزن اليائس ما زعم من تكرار غدوّ النبي ﷺ إلى الشواهق ليتردّى من أعاليها، وتكرار تبدّي جبريل له، وتكرار قوله في مخاطبته له: إنك رسول الله.

فهل كان هذا الإيقان والاعتراف بالحق موجودين عند النبي ﷺ في فترة الوحي، ومع وجودهما وقع فيها منه ما زعمه بلاغ الحزن اليائس؟

وإذن فما يُسمَّى هذا في شرعة النبوات والرسالات الإلهية؟ أو كان ذلك الإيقان والاعتراف بالحق غير موجودين عند النبي ﷺ في فترة الوحي- وفيها كان نبيًا رسولا قطعا- بل هما قد ذهبا بذهاب ورقة؟ وإذن فماذا بقي من النبوة والرسالة؟

إن بلاغ الحزن اليائس أبطولة منكرة كسيحة، لا تقوم على ساق من واقع الحياة النبوية الطاهرة المطهرة، ونعوذ بجلال الله العلي الكبير أن نقبلها، فضلا أن نعتقدها في إيماننا بسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولًا، ورضائنا بالإسلام دينًا، وبالعلم هاديًا وإمامًا، وبالعقل قائدًا ومرشدًا.

الثاني: أن تجويز أدنى شك وارتياب على النبي ﷺ في

رسوخ إيمانه بنبوته ورسالته، بعد ثبوت النبوة له بوحي الرؤيا الصادقة الصالحة، وسبحه في غمرات أنوارها أمدًا طويلًا، يوحى إليه فيه بمراتب وحيها، يعلم ويكلم، ويسمع، ويرى من أعاجيب ربه، وآياته، مما أثبتته الأحاديث المسندة الصحيحة، وبعد ثبوت الرسالة له بلقاء أمين الوحي جبريل عليه السلام علانية في غار حراء في وحي اليقظة، وبدء نزول القرآن الكريم عليه، بخمس آيات من أوائل سورة (اقرأ باسم ربك) لا يُبقي لغيره من كافة الخلق المرسل إليهم لدعوتهم إلى الإيمان به وبدعوته، دعوة الحق والتوحيد، ووجوب متابعته في كل ما يأمر به أو ينهى عنه، خيطَ عنكبوت يتعلقون به في قبول هذا الإيمان، بَلْه صونه وحفظه من معاول الشبه والأضاليل، والدفاع عنه، ورد الأباطيل عن ساحته المنيرة بنور اليقين.

ذلك لأن صاحب الدعوة المعصوم بمقتضى ثبوت نبوته قبل لقاء الغار المفاجئ، إذا لم يكن عنده أكمل اليقين في نبوته ورسالته وهو قد عاين ما ينزل عليه من آيات ربه، فكيف يستمسك بالإيمان به وبدعوته من لم يعاين شيئًا مما عاين صاحب الدعوة من الآيات، ونزول الذكر الحكيم، وهو يجد صاحب الدعوة يشك في حاله ويطلب التثبيت من غيره؟

هذا ضرب من المحال في متعارف العقول، وهل للمرتاب في حاله، الشاك في أمر نفسه، اليائس في حزنه، يأسًا دفعه

مـرارًا إلـى أن يحاول قتل نفســه للتخلص مـن حياته- قوةٌ من صدق الإيمان بدعوته، ينهض بها إلى مواجهة الناس ودعوتهم للإيمان برسالته، وهي معلقة في فضاء الشك والحيرة؟

لكن محمدًا ﷺ كان أرسخ العالمين بالله إيمانًا، وأعمقهم يقينًـا، إيمانًـا ويقينا كانـا جناحي نهضته بدعوتـه الخالدة، الخاتمـة لدعوات السـماء، فآمن به من آمن اسـتجابة لصدق يقينه في دعوته وراسخ إيمانه برسالته.

الثالث: أن إجابة أبي بكر الإسماعيلي عن مطاعن الطاعنين علـى المحدّثيـن بأن الله تعالى إذا قضى إيصـال أمر جليل إلى الخلق قدم إليه ترشيحا وتأسيسا، مسلّمة في جملتها، ولكنها ضعيفة في تعليلها ودعامتها.

والأمر الجليل الذي قضـى الله تعالي إيصاله إلى الخلق هنا هو رسـالة محمد ﷺ قد قدم لها النبـوة بوحي الرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب وحيها، والنبوة سبقت الرسالة بأمد طويل، قيل: إنه ستة أشهر كما حكاه البيهقي في الدلائل، وقيل: إنها ثلاث سنين كما في مرسل الشعبي، وقيل: إنها سنتان ونصف سنة، كما قال السهيلي: إنه مروي مسند.

وأيمـا كان فهي- في أقل تقديرهـا- مدة كافية في أن تملأ قلب النبي ﷺ يقينا لا يزعزعه شـيء مهما كان هائلًا مفزعًا، فـي أنه نبي أوحـي ويُوحى إليه، وأنه لابد أن يكون قد شـاهد من وحي النبوة وأحداثها العظام في مداها قبل مجيء الرسـالة

إليــه عجائب من آيات الله وعظائم أمره الإلهي مما لا يبعد عن مجانسة أو مقاربة ما رآه في مفاجأة الغار.

فإذا فاجأه الوحي اليقظي بما يخالف مألوف الناس ومألوفه هو ﷺ فــي وحي النبــوة بالرؤيا الصادقة وغيرهــا من مراتب وحيهــا، فــلا مانــع أن يفزع ويرعــب للمفاجأة وهولهــا فزعًا معتصمــا بنور النبوة وقوة روحانيتها، ورعبًا محفوفا بالعصمة التي تجب له منذ أول لحظة كان فيها نبيا اصطفاه الله لوحيه.

لكنــه لا يجــوز عليه قط أن يفزع فزعًا ينســيه أنه نبي، ولا يجــوز عليــه أن يرعب رعبًا يســلبه فــي لحظة مــن اللحظات اصطفــاء الله له لنبوته ووحيه بما يخرجه عن يقين الأنبياء إلى ارتياب المرتابين.

والنبــوة مرتبــة فــوق جميــع مراتــب الكمــال البشــري، والرســالة مرتبة فوق جميع مراتب النبوات، فإذا ثبتت النبوة لمن يصطفيه الله تعالى لمرتبتها، ثم جاءه من ربه جل شــأنه - وهو نبيٌّ يوحى إليه - ما ليس مألوفًا لبشــريته قبل النبوة، فلا مانع أن يلحقه شــيء من الفزع والرعب البشري، لكنه فزع أو رعب لا يمكن أن يكون كفزع ورعب من لم يكن نبيًا.

وكذلــك إذا ثبتت الرســالة لمن يصطفيــه الله عز وجل من أنبيائــه رســولًا، ثــم جاءه مــن عند الله تعالــى ما ليــس مألوفًا لبشــريته قبل أن يكون رســولًا فلا مانع أن يفزع ويرعب فزعًا ورعبًــا تقتضيــه دواعي بشــريته، لكنه لا يمكــن أن يصل إلى

درجـة تخطي عصمة النبوة والرسـالة، وقد بينـا أن هذا الفزع مرجعه خشية النبي ﷺ ألا يستطيع القيام بحقوق رسالته لما يقام في طريقه من عوائق وعقبات.

ومحمـد ﷺ ثبتتْ لـه النبوة - قطعًا - قبـل مفاجأة الغار، وقبـل فتـرة الوحي، فـإذا روي أنه فزع من هـول المفاجأة وما حـفّ به فلا يجوز قـط أن يقال: إنه فزع فزعًـا أذهله عن مقام نبوتـه فلم يتمكـن من التأمل، وخشـي على نفسـه أن يكون كاهنًا أو أن يكون به جُنُن.

كمـا لا يجوز قـط أن يقال عنه: إنه حـزن على فتور الوحي حزنًا أخرجه عن عصمة النبوة والرسـالة، وحمله على محاولة قتل نفســه، ومدة فتور الوحي طالت أو قصرت شأنٌ من شئون الله التي ينفرد بحكمتها.

ولا شك أن من بدائه العلم بالنبوة والرسالة، والإيمان بهما العلـمَ بجـلال الألوهية وإطـلاق الإرادة الربانية فـي اختيارها وتصرفهـا الـذي لا يحـده أمر من الأمـور، والأنبياء والرسـل أعـرف العارفيـن بجـلال الله، فلا يتصور أن يقـف منهم أحد، وفـي طليعتهم سـيد العالمين محمـد خاتم النبييـن، يعارض مشيئة الله تعالى ومطلق إرادته، وخصيصة الأنبياء والمرسلين التسـليم المطلق لإرادة الله تعالى، والرضا بما تأتي به مشيئته عز شأنه.

وهـذا ممـا يؤكد تأكيـدًا قويًا زيـف بلاغ الحـزن اليائس،

ويشجب التفسير المتخرّص للخشية في قوله ﷺ : (خشيت على نفسي)، ويرد ما كان من الحزن والخشية إلى مألوف الحياة في نوازع الطبيعة البشرية في خصائصها الإنسانية المجردة عن عوامل السموّ الروحاني المتعالي عن تأثرات الغرائز البشرية والضعف الإنساني.

ولا ندري كيف لم يتمكن النبي ﷺ من التأمل في تلك الحال - كما يقول أبو بكر الإسماعيلي في جوابه عن طعن الطاعنين على المحدّثين - وهو ﷺ قد عاد إلى أهله بعد فجأة الغار وما جرى فيه، وطلب أن يلجأ إلى فراشه مزملًا مدثرًا، ليستجم ويستريح من أثر غط الملك غطا بلغ منه الجهد حتى ظن أنه الموت، ثم هدأت نفسه وربط جأشه، وحدّث أهله بما رأى وما سمع، وما كان من شدة لقاء الملك، وما أقرأه من آيات القرآن الكريم.

ولا شك أنه ﷺ بعد هذا الهدوء النفسي قد زالت عنه - أو خفت - مشقة المفاجأة والغط الذي استفرغ بشريته وأكسبه قوة روحانية كان بها في أكمل مراتب اليقين بنبوته ورسالته.

بيد أن مفاجأة الغار قد أضافت إلى يقينه برسالته إمعانًا في التفكير للقيام بأعباء الرسالة التي عَرف بهذا اللقاء اليقظي أنها أثقل تلقيًا وأشد عبأ من النبوة، وعرف أنها أفدح تحملًا في التبليغ والدعوة، وهذا هو الذي بثّه إلى خديجة رضي الله عنها، فشجعته بكلماتها النورانية، وفراستها الفطرية.

وإذا كانت النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها - كما يقول أبو بكر الإسماعيلي، وهو حق لا يجادل فيه - لكنها تخلص الروح من أعظم علائقها المادية المعوقة للاتصال بالملأ الأعلى في شيء من المجانسة الروحانية ليحصل التناسب لروحاني عند بدء الرسالة بتلقي الوحي اليقظي ونزول القرآن الكريم.

فالنبوة وإن لم تزل طباع البشرية كلها، لكنها لابد أن تزيد قدرًا منها يحرر القوة الروحانية من سيطرة قوى الحس المادي في عناصر البشرية حتى تتمكن من مجانسة الملأ الأعلى في روحانيته العليا، لتتلقى عنه ما يأتي به الوحي اليقظي في مراتبه المختلفة.

وهذا العذر لا يمنع طروء الفزع والرعب مما لم يُؤْلَف في الطباع البشرية، وفرق كبير جدّا أن يفزع مما لم يؤلف، وبين أن ينفر الطبع مما لم يؤلف، فالنبي ﷺ فزع ورعب مما لم تألفه بشريته من المفاجأة والغط والإقراء، ولكنه لم ينفر طبعه من ذلك، بل لقد كان هذا الذي فزع منه محببًا إليه شديد الرغبة فيه، والسبح في مشاهده، بدليل ما قدمناه من الأحاديث التي تثبت أن النبي ﷺ على أثر هدوء نفسه، وتحدثه إلى أهله بما حدث له، وتشجيعها له بكلمات النور الرباني، وذهابها به إلى ورقة، وسماعه كلام ورقة - عاد ﷺ إلى متعبده غار حراء، وهو المشهد الذي فاجأه فيه ملك

الوحـي وحـدَث له فيه ما حدث، فلو كان رسـول الله ﷺ نافر الطبع مما وقع له في غار حراء لم يكن ليسـرع إلى عودته إلى متعبده الذي شـهد فيه ما حدث له مـن المفاجأة والإقراء، بل لو لم يكن رسـول الله ﷺ محبًا، شـديد الرغبة والتشوف إلى تلك المشـاهد ما كان يعود إليها في مشهدها وساحة وقوعها في غار حراء، والنبي ﷺ سـبق له أن رأى وشاهد من العجائب والإرهاصات قبـل النبوة وبعدها ورأى من الآيات والمعجزات بعد النبوة ولم ينفر عنها طبعه، فقد سمع الأشجار والأحجار، ورأى تظليل الغمام، ورأى وسـمع الصوت دون أن يعلم مصدر ما يرى وما يسـمع، وهذه كلها أشـياء لم يألفها طبعه، ولكن طبعه لم ينفر منها، بل كانت له مؤيدات ومبشرات.

قـد يفـزع النبي ﷺ مـن هـول المفاجأة، وقـد يرعب من رؤيـة الملـك أول ما رآه عيانًـا في الصورة التي جـاء بها إليه، ولابـد أن يكون فيها ضرب مـن الملائكية والروحانية العليا، وقد يرتاع من شـدة الغط المتكرر الـذي بلغ به جهده في كل مـرة حتى إنه ظن المـوت - كما ثب في بعـض الروايات وقد يدهـش فلا يتمكن من التأمل في جـوّ المفاجأة وما تتابع فيها مـن الأحداث فـي حالته، ولكنه لا يمكن أن يسـتمر معه عدم التمكن من التأمل في حالته فيصل إلى أن يحصل له الشك في نبوته التي ثبتت لـه يقينًا، وعاش في أنوارها، ومراتب وحيها ومشـاهدها، ويحتاج إلى أن يشكو إلى خديجة رضي الله عنها

حاله، ويخشى على نفسه أن يكون كاهنًا أو أن يكون به جُنُن من تفسيرات المتخرصين للخشية، ويحتاج إلى أن يسمع من ورقة ما يثبّته حتى يوقن بالحق ويعترف به، وأي باطل أبطل من تجويز ذلك على رسول الله ﷺ في مشرق رسالته؟

الرابع: كيف تكون مدة فتور الوحي من مقدمات تأسيس النبوة، وهذا الفتور عبارة عن تأخر الوحي مدة من الزمان ليستجم فيها النبي ﷺ، ويذهب عنه ما كان وجده من روع المفاجأة ومكابدة الغط وهوله، وهذه المدة متأخرة جدًا عن مجيء النبوة وتأسيسها؛ لأنها كانت باليقين القاطع بعد مفاجأة الغار ونزول أوائل سورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وقبل نزول سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.

والنبوة بوحي الرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب وحيها كانت مؤسسة ثابتة، مكتملة العناصر والمظاهر، قبل حادث الغار الذي أنزلت فيه آيات من أول سورة (اقرأ) بزمن مديد. وحادث الغار كان مبدأ لرسالة النبي ﷺ ونزول القرآن عليه.

ثم كيف تشق فترة الوحي على النبي ﷺ – وهي فيما رجحه المحققون لا تتجاوز (أيامًا) معدودات، كما جاء صريحًا في حديث ابن عباس – وقد كان النبي ﷺ في أشد الحاجة إليها، ليستريح من أثر ما لقي من شدة في حادث الغار، ويستجمع قواه الروحانية العالية التي أفرغت عليه في لقاء الغار وضمة

الملك، وإقرائه أول ما نزل من القرآن الكريم، استعدادًا لتتابع الوحي ونزول القرآن وشرائع الإسلام؟

والحق أن فترة الوحي في زمنها الذي وقعت فيه، وفي مقدار أمدها كانت رحمة من الله تعالى بنبيه ﷺ، وتلطفًا به، وتشويقًا له، لتتشوف نفسه الكريمة إلى منازل القرب وتتابع الوحي، فهي ضرورة من ضرورات التدبير الإلهي الحكيم المحكم، ولون من التربية الخاصة التي تعاهد الله عز شأنه بها نبيه في حياته نبيًا ورسولًا.

فلا مشقة في فترة الوحي على رسول الله ﷺ، ولكن رحمة ولطف وتربية وإعداد لما ينتظر النبي ﷺ في مستقبل رسالته من شدائد التنزيل والتبليغ.

والمشقة إنما كانت أثرًا من آثار مفاجأة الغار، وما وقع فيها للنبي ﷺ، وأما الحزن الذي جاء ذكره في حديث عائشة عند البخاري في تفسير سورة (اقرأ) فقد جاء مجردًا عن قصة محاولة التردي من شواهق الجبال، ففي هذا الحديث جاء قوله: (وفتر الوحي حتي حزن رسول الله ﷺ) وهو حزن تشوف وشوق، لا حزن تخوف وشك.

الخامس:- كيف يمكن- بعد ثبوت النبوة له ﷺ قبل فترة الوحي بزمن طويل، وبعد استعلان جبريل له، ومخاطبته عيانًا، وقد تجلّى له في وسط الجبل وهو عائد إلى أهله، بعد أن هب من رؤيا نمط الديباج قائلًا: يا محمد، أنت رسول الله وأنا

جبريــل، كما ثبت في حديــث عبيد بن عمير – أن يقال: إنما شق عليه فتور الوحي إذ لم يكن خوطب عن الله بعدُ إنك رسول الله؟ وإذن فما شــأن النبوة الثابتة له ﷺ قبل فترة الوحي بزمن طويــل؟ أفــلا يكفي ثبوتها لــه ﷺ في تثبيتــه واصطباره حتى يأتيه أمر من عند الله الذي اصطفاه بنبوته واختاره لرسالته؟

ومــا شــأن الأحاديث التــي تثبــت أن جبريل عليه الســلام استعلن لــه قبل فتــرة الوحــي، وتبدّى لــه في صــور ملائكية مختلفــة، منامًا ويقظة قبل حادث الغار وعقيبه مباشــرة، وهو عائد إلى أهله، وخاطبه جهرة في يقظته قائلًا: يا محمد: أنت رســول الله وأنا جبريل؟ وكيف يكــون الخطاب المقصود من قول أبي بكر الإســماعيلي: (إنما شقّ عليه فتور الوحي إذ لم يكن قد خوطب بعدُ إنك رسول الله)؟ كيف وقد خوطب أكثر مــن مرة أنه رســول الله، وأن الذي رآه في المنام ثم اســتعلن له هو أمين الوحي جبريل عليه الســلام، وقد ذكر القسطلاني في المواهب كلام أبي بكر الإسماعيلي في تعليل حزن النبي ﷺ ولم ينسبه إليه، ورده شارحه الزرقاني فقال: وقول المصنف: (أو حزن على ما فاته من بشــارة ورقة ولم يخاطب عن الله بأنه رسول الله ومبعوث إلى عباده) فيه – أي في كلام القسطلاني – أن في مرســل عبيد بن عمير عند ابن إسحاق أن جبريل ناداه: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

السادس: ما معنى قول أبي بكر الإسماعيلي:

ثم كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي ليتدرج فيه، ويمرن عليه، فشق عليه فتوره إذ لم يكن خوطب عن الله بعدُ: إنك رسول الله، فأشفق أن يكون ذلك أمرًا بدئ به، ثم لم يرد استفهامه، فحزن لذلك حتى تدرّج على احتمال أعباء النبوة والصبر على ثقل ما يرد عليه، فتح الله له من أمره بما فتح؟

قد بيّنا أن فترة الوحي أبعد ما تكون زمنًا ووضعًا وموضوعًا من أن تكون مقدمة من مقدمات تأسيس النبوة؛ لأن فترة الوحي متأخرة جدّا في زمن وقوعها ووضعها في إطار الرسالة بزمن مديد طويل عن ثبوت النبوة وتحققها بجميع عناصرها ومظاهرها، والمتأخر زمنًا لا يصلح بداهة أن يكون تأسيسًا للمتقدم.

وكذلك فترة الوحي أبعد ما تكون في موضوعها وحكمتها عن التدرج بالنبي ﷺ في الوحي ليمرن عليه؛ لأن الوحي وسائر شئونه ليست من الشئون الكسبية التي يتدرّج الإنسان في مراتبها ودرجاتها حتى يمرن عليها؛ ولأن التدرج والمران يقتضيان تعدد فترات الوحي، حتي يتحقق المقصود منهما، والمقطوع به أن فترة الوحي لم تتكرر، ولم تقع بصورتها المشهورة المقصودة عند الإطلاق إلا مرة واحدة.

أما فترة الوحي قبيل نزول سورة (والضحى) فهي فترة من نوع آخر كان سببها على الصحيح أن النبي ﷺ اشتكى فلم يقم لصلاته في جوف الليل، ليلة أو ليلتين، وكانت العوراء

أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وزوج أبي لهب جارة سوء للنبي ﷺ، فلم تسمع صلاته حين اشتكى، فقالت كلامًا خبيثًا تُعَيِّر به النبي ﷺ وتشمت به أن الله تعالى ودعه وقلاه فأنزل الله تعالى حفاوة بنبيه ﷺ وردًا لقالة السوء الخبيثة التي قالتها خبيثة أبي لهب، وهما من أعدى أعداء النبي ﷺ سورتي (والضحى، وألم نشرح) كاملتين، روى البخاري ومسلم والترمذي، والنسائي عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثًا، فأنزل الله عز وجل:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾

(سورة الضحى: ١-٣)

وفي رواية فأنزل الله (والضحى) و(ألم نشرح) بكمالهما.

وقد عرفنا بطلان قول أبي بكر الإسماعيلي: إذ لم يكن خوطب عن الله بعدُ: أنك رسول من الله، وأثبتنا أنه كان قد خوطب بذلك قبل فترة الوحي، وقبل أن يأتي إلى أهله في عودته من مفاجأة الغار وتكرار الغط، وبعد أن أقرئ أوائل سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وذكرنا ردّ الزرقاني شارح المواهب على مؤلفها الإمام القسطلاني الذي ساق كلام الإسماعيلي

ولم ينسبه إليه، مستدلًا على أن النبي ﷺ خُوطب بأنه رسول الله بحديث عبيد بن عمير عند ابن إسحق، وهو حديث وإن كان مرسلًا لكنه صحيح كما نص عليه الأئمة.

أما قول أبي بكر الإسماعيلي: فأشفق أن يكون ذلك أمرًا بدئ به، ثم لم يرد استتمامه[١٣]، فحزن لذلك، فهو كلام لا محصل له؛ لأنه مبني على ما أبطلناه من قضية التدرج والمران على الوحي، وعلى دعوى أنه لم يخاطب بأنه رسول الله.

ولم يتعين لنا مرجع اسم الإشارة في قول الإسماعيلي: فأشفق أن يكون ذلك أمرًا بدئ به، هل مرجعه بدء النبوة التي كان من مقدمات تأسيسها فترة الوحي؟ - في زعمه - وإذا كان ذلك كذلك كان المعنى أن النبي ﷺ فقد معالم النبوة، أو نسيها، أو ذهل عنها في غمرة الحزن اليائس المزعوم، فأشفق - حيث لا عاصم من نبوّة - أن يكون فتور الوحي انقطاعًا أبديًا لأمر النبوة التي بدئ بها ثم صرفت عنه؟ ويدل لهذا ما ذكره ابن حجر من أن إرادة ترديه في المرة الأولى كانت كما في صريح الخبر - حزنًا على ما فاته من الأمر الذي بشره به ورقة، وهذا الأمر هو النبوة والرسالة، وقد ذكره القسطلاني.

أو أن مرجع اسم الإشارة فتور الوحي الذي شق على النبي ﷺ؟ وإذا صح هذا كان المعنى أن النبي ﷺ توهم أو قدّر في

(١٣) كانت في الأصل (استفهامه) ولعله خطأ طباعي (المجلة).

نفسه شيئًا فلما فتر الوحي حزن حزنًا يائسًا على فوات ما توهم أو قدّر، وأيما كان الأمر فهو أمر خطير تتزلزل له أقدام الراسخين، ولا يمكن أن تتقبله عقول العالمين، فكيف بعامة العقلاء وكافة المؤمنين.

السابع: ما قيمة هذا التمثيل الذي جاء به أبو بكر الإسماعيلي ليبين عدم تمكن النبي ﷺ من تحقق حاله على جليتها حينما وقع له ما وقع في مفاجأة غار حراء، ورجع بآثار ما رأى وسمع وكابد من الفزع والروع إلى أهله، وطلب إليهم أن يدثروه في فراشه لتهدأ نفسه، ثم أخبر أهله بخبره وأبدى لخديجة رضي الله عنها وهي زوجه ومأنسه خشيته من ثقل ما كُلِّفه من حمل أعباء الرسالة، فذكرت له ما هو عليه من مكارم الأخلاق وسواء الفطرة، واستقامة الجبلّة مما جرت سنة الله تعالى ألا يخزي من حلّاه بها، ثم أرادت خديجة أن تزداد تثبيتًا وتقر عين رسول الله ﷺ بما يسمع من أهل العلم بالمبشرات، فتوجهت به إلى مَن عنده علم الكتاب الأول، إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان بذلك عليمًا، فحدّثه النبي ﷺ فصدقه ورقة، وبشره بأن ما رأى وما سمع حق من عند الله، فليثْبُت لأمر الله، فإنه رسول الله ونبي هذه الأمة.

فهل حال النبي ﷺ في نبوته الثابتة بوحي الرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب الوحي قبل مفاجأة الملك له في غار حراء بمدة متطاولة، أقلها ستة أشهر، كما ذكره البيهقي في

الدلائل - مثل حال من سمع شخصًا يقول: الحمد لله، ثم لم يتابع القراءة، فلم يعلم سامعه أنه يريد أن يقرأ إلا إذا وصلها بما بعدها من الآيات، فإذا وصلها تحقق أنه يقرأ؟ أو حاله ﷺ حال من سمع قائلًا يقول: خلت الديار، ولم يتابع الإنشاد، فلم يتحقق سامعه أنه ينشد شعرًا إلا إذا تابع الإنشاد وقال: محلها ومقامها.

هذا تمثيل عجيب غريب، وقياس لا محل له، فالنبيُّ ﷺ نبّئ وعرف معالم نبوته معرفة يقينية، ملأت عقله وقلبه، وروحه، قبل أن يفاجأ بلقاء الملك في غار حراء، وقد مضى على حاله في نبوّته زمن طويل قبل هذا اللقاء، فهو ﷺ كان حين لقاء الملك في الغار وبعده متحققًا حاله على جليّتها، وأنه على أكمل اليقين أنه نبيٌّ اصطفاه الله بوحيه، وأيده بآياته، وتولّاه برعايته.

فالذي سمعه ورآه وكابده في الغار من مشقة الغط، وبغتة اللقاء، وإقرائه آيات من القرآن ما هو إلا ضرب من ضروب الوحي ومشاهده التي ألف الكثير من شدائدها وهو مغمور بأنوار النبوة.

وإذا كانت شدة وحي النبوة بالرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب الوحي قبل مفاجأة الغار لا تبلغ أن تكون في مثل شدة وحي الرسالة ونزول القرآن التي كابدها النبي ﷺ في أول لقاء له بالملك يقظة، فإن هذا التفاوت في الشدة وثقل التحمّل

مهمـا بلغـت فوارقه لا يمكـن أن يُذهبَ عـن النبي ﷺ معالم نبوتـه التي رسـخت فـي عقله وقلبـه وروحه، حتي يتشـكك ويرتاب فيما جاءه من وحي الرسـالة، ويخشى أن يكون ما رآه في الغـار من قبيل الكهانة، أو الجُنُن، ويحتاج إلى أن يشـكو حاله إلى خديجة رضي الله عنها، ويحتاج إلى سماع كلام ورقة ليحصل له الإِيقان ويعترف بالحق.

فالنبـوة بمـا يجب لها مـن العصمـة أرفع درجـات اليقين والمعرفـة بأمـر الله، تمنع منعًـا باتًا أن يكـون النبي ﷺ غير متحقـق من حالـه في أي مرتبة من مراتـب الوحي مهما بلغت شدتها.

والـذي حصل لرسـول الله ﷺ مـن الفزع والـروع لم يكن قط لفراغ نفسـه مـن اليقيـن والمعرفـة الحقة الصادقـة بأنه نبي اصطفـاه الله لوحيه، وإنما كان لمـا لقيه في وحي اليقظة من اسـتفراغ بشـريته من العلائق الماديـة التي تقيد الانطلاق الروحي لحصول المجانسة للملأ الأعلى في روحانيته العالية، حتى يتسنى تلقي وحي المشافهة عن أمين الوحي جبريل.

فأي محصِّل لهذا التمثيل؟ لا، بل نقول في تساؤل وتعجب دهِـش: هل يليق هـذا التمثيل في موضعـه وتحقيق المقصود منه؟

فهـل حال النبي ﷺ في عدم تحققه حالَـه على جليّتها في أول مـا خوطب في وحي اليقظة ومفاجـأة ملك الوحي في غار

حـراء، وقد كان ﷺ في أرفع درجات اليقين بنبوته التي ثبتت لـه ثبوتًـا قطعيًا، وعـاش في أنوارهـا وآياتهـا وعجائبها، قبل مفاجـأة ملك الوحي، ويجري له معه ما جرى من طلب القراءة وتكرار الغط المجهد بشـدته البالغة، وإقرائه أول ما أنزل الله عليه من القرآن الحكيم - كحال مَن سمع قائلًا يقول: الحمد لله، فلـم يتحقق أنه يقرأ حتى يصل قولـه: الحمد لله بما بعده من الآيات، فعندئذ فقط يتحقق سامعه أنه يقرأ؟

كيـف وبين الحاليـن من التفـاوت والفروق مـا بين يقين المعرفة، بما سـبق لها من أسباب وطيدة راسخة، وبين جهالة تامة لا شعور معها بأي شيء سابق يتصل بقول القائل: الحمد لله، فسـامع مـن قال الحمـد لله، ليس لديه أدنى شـعور بحال القائـل: الحمد لله، إن كان يقـرأ، أو كان يحمد الله فقط؛ لأن جملـة: الحمـد لله، صالحة في ذاتهـا أن تكون بـدءًا لقراءة، وصالحـة أن تكون مجرد جملة لذكر الله بحمده، فسـامعه في جهالة كاملة بحاله؛ لأنه لا يعرف شـيئا عن جليّة حاله، إلا إذا وصـل جملة: الحمـد لله بما بعدها من الآيـات، وحينئذ فقط يتحقق سامعه أنه يقرأ.

والنبـي ﷺ كان قبـل لقـاء ملـك الوحـي في غـار حراء، ومخاطبتـه على يقين كامل بأنه نبي اصطفاه الله بوحيه، وأيده وكرّمـه بآياته ومعجزاته، فإذا جاءتـه مرتبة من مراتب الوحي أشـد وأثقل تحملا من سـائر مراتب وحي النبـوة التي مرّ بها

قبل هذا اللقاء المفاجئ في اليقظة، فلن يمحو ذلك من عقله، وقلبه وروحه أنه نبي معصوم، وأنه سوف يأتيه من الوحي درجات ومراتب لم تسبق له في نوعها وطريقتها وشدتها.

فلا تماثل قط من قريب أو بعيد بين من يجهل الأمر جهلًا كليًا، ويسمع جملة محتملة لأن تكون بدء قراءة، ولأن تكون مجرد ذكر لله تعالى - فلا يتحقق سامعها أن قائلا يقرأ من القرآن إلا إذا وصلها قائلها بما بعدها من الآيات.

أو من يسمع جملة من بيت شعر، وهو يجهل حال قائلها جهلًا تامًا، فلا يتحقق أن قائل هذه الجملة ينشد شعرًا حتى يقول قائل الجملة ما بعدها من بيت الشعر؛ لأن سامع الجملتين: الحمد لله، وخلت الديار، في جهالة تامّة بحال قائلهما، فهو معذور بجهله إذا لم يتحقق جلية أمر قائلهما- وبين حال من اصطفاه الله نبيًا، وأوحى إليه ما أوحى، وعلّمه من أمره ما شاء أن يعلمه، وأضفى عليه كامل رعايته في جميع لحظات حياته، وغمره بيقين الإيمان بنبوته في جميع أحواله، فلم ينسها أو يذهل عنها، أو يغفل عن مشاهدها.

فهذا التمثيل المغالط المغلوط ضرب من الإصرار على أن النبي ﷺ يجوز عليه أن يقع تحت وطأة الشك في نبوته، وأنه قد تخلّت عنه عواصم النبوة، وخشي على نفسه أن يكون كاهنًا أو أن يكون به جُنُن، لمجرّد أن الوحي تدرج به من مراتب النبوة ووحيها إلى مراتب الرسالة ووحيها، ففوجئ

بما ارتاعت له بشريته ساعة المفاجأة وشدة الغط، ولكنه سرعان ما هدأت نفسه، وذهب عنه الروع، وهو على يقينه من أمر ربه، ومعرفة حق رسالته.

ويتابع أبو بكر الإسماعيلي كلامه في هذه القضية الشائكة العصية، ويمضي في طريقه بعد أن أنهى القول فيما ظنه تشييدًا لتأويل المراد من الخشية في قول النبي ﷺ لأهله بعد أن رجع إليهم مرتاعًا ترجف بوادره من هول ما رأى وسمع: (أي خديجة: مالي؟ خشيت على نفسي) بأبطل ما قيل في تأويلها وتفسيرها إلى بيان الدوافع وراء ما زعم من إرادة النبي ﷺ إلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال ليقتلها تخلصًا من حياته حزنًا على فتور الوحي، فيقول: وأما إرادته إلقاء نفسه من رءوس الجبال بعدما نبئ فلضعف قوته عن تحمّل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفًا مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعًا، كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلًا، حتى إذا تفكر فيما فيه صبره على ذلك من العقبى المحمودة صبر واستقرت نفسه.

الأنبياء أقوى الناس عزائم وأقوى الأنبياء عزيمة محمد ﷺ:

وهذا كلام موغل في التهافت والضعف، والغفلة عن عزائم النبوة وعواصمها التي يقيم الله تعالى على دعائمها بناء شخصية من يصطفيه لشرفها من عباده المخلصين.

ونبينا محمد ﷺ قد اصطفاه الله تعالى لنبوته الخاتمة ورسالته الخالدة، وحقق له في بناء شخصيته الروحانية وطبيعته البشرية أكمل وأرفع ما أعطى نبيًا من أنبيائه من القوى والاستعداد ليجانسه بالملأ الأعلى في شهوده آيات الله في ملكوته، وبهذه القوى التي أعده بها روحيًا عَلِمَ من أمر الله ما لم يعلم أحد من البشر، ورأى من الحقائق الكونية ما لم ير مثله أحد من الأنبياء والمرسلين، وسمع عن الله تعالى ما خصه به من أسرار الخلق.

وقد ظلّت هذه القوى الروحانية العليا في نماء وازدياد، وعلو واطّرد، تنتقل به في مراتب الوحي، وتجليّات الشهود، ومنازل القرب، حتى بلغ من فضل الله عليه أعلاها مقامًا، وأرفعها سموًا، وأجلها رفعة وتعظيمًا، فكان خاتم النبيين وسيد العالمين، وإمام المرسلين.

فلا يقبل من أحد كائنًا من كان في دوي اسمه، وهالات رسمه أن يحاول- من أجل (بلاغ) لا سند له، ألحق بجامع البخاري في موضع واحد من روايات حديث (كيف بدأ الوحي) مع تعدد مواضعه في الجامع الصحيح، وفي غيره من كتب الجوامع ودواوين السنن والمسندات، إلحاقًا أشبه بإلحاق اللصيق الذي لا يعرف مورده- جرجرة الحديث في عماية مظلمة، فيقول عن

سيد العالمين محمد ﷺ- إنه بعد ما نبئ- أراد أن يقتل نفسه حزنًا على فتور الوحي.

وما قيمة النبوة التي اعترف بها أبو بكر الإسماعيلي في قوله: بعدما نبئ- إذا لم تعصم من تحلى بها عن تكرار عزيمة ارتكاب أشنع جرم في نفسه حزنًا على ما فاته، ليتخلص من حياته، وخروجا على مجريات قضاء الله وقدره، والإيمان بقضاء الله وقدره، والتسليم لله فيما يشاء، والرضا بما يختار، من بدائه العلم لعامة المؤمنين، بله الأنبياء المصطفين المخلصين.

وأي دافع يختلج في حنايا أنفس مزيفي الإيمان، تافهي الشخصيات، مظلمي الأرواح، ضعاف العقول، مرضى القلوب الذين يقتلون أنفسهم يأسًا من حياتهم في لحظة تأزم نفسي، تمر عليهم فيها شدة من شدائد الحياة، تنوء بها أعصابهم، وتتهاوى قواهم أكثر مما زعم المتخرّصون على سيد الوجود محمد ﷺ.

إن هذا التخرّص لَمن أبطل الباطل، وأنكر المنكر، وأوغل التقحم في متاهات المحال.

يستحيل أن يختار الله تعالى لرسالته ضعاف العزائم:

وإذا كانت قوة النبي ﷺ تضعف عن تحمل ما حمل من أعباء النبوة فكيف اختاره الله تعالى لها، وهو سبحانه يقول فيما أنزله عليه:

﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

إن الذين يزعمون ضعف قوة محمد ﷺ عن تحمّل ما حمله الله تعالى من أعباء النبوة وأثقالها إلى درجة يفقد معها مقومات البصر بعواقب الأمور بله عواصم النبوة فيستولي عليه حزن اليأس القاتل يقرءون في تاريخ البشرية منذ كانت الحياة عن شجاعة وصبر، أو تشاجع وتصبر كثير ممن يوصفون بالبطولة أمام عواصف الأحداث، وعظائم الكوارث حتى تنجلي عنهم غمائمها، ويقرءون في تاريخ كثير من علماء هذه الأمة وقواد جهادها كيف صبروا للفوادح والبلايا وهي تأخذ بحلاقيمهم، فلم تتزعزع شخصياتهم، ولم تضعف قواهم، ولم يجد الحزن اليائس سبيلًا إلى أنفسهم، وكيف تسامى كثير منهم في حومة المحن القاصمة عن اهتزاز قلوبهم هلعًا، واضطراب عقولهم جزعًا حتى مضوا صابرين موقنين بما حملوا من أمانة من أعباء الإيمان وأمانة الحق.

حسن الأحدوثة يحمل على الصبر والتصبّر:

ونجزم بمقتضى ما جبل الله تعالى عليه الطبائع البشرية من التَّولُّه بحسن الأحدوثة والتمدح أنه لو قيل عن أحد هؤلاء الزاعمين ما زعموا وكثير منهم أصحاب أسماء عريضة الدوي في آفاق التاريخ ودنيا الناس- أنه حزن حزنًا يائسًا يدفعه إلى قاصمة الظهر، منهية الحياة، من أجل مُهِمٍّ فاته، أو ظن أنه

سيفوته أو خاف فواته، فعزم على قتل نفسه بأبشع ما يقتل به إنسان نفسه، وشرع في تنفيذ ذلك- لانتفض صارخًا متبرئًا مما أُبِن به[١٤]، وزعم لنفسه أنه أشجع من أن تضعف شخصيته هذا الضعف الذليل، وأنه أصبر على الرزايا وعض الأحداث له بأنيابها من أن تخور عزيمته فيهرب من مواجهة أقداره.

فكيف استقام لهؤلاء الزاعمين حزن اليأس- وهم مَن هم في أمة محمد ﷺ- أن يُزنِّوا سيد الخلق بضعف قوته عن تحمُّل ما حمل من أعباء النبوة ضعفًا يذهب بكل خصيصة في شجاعة قلبه وروحه[١٥]، ويذهب بعواصم النبوة، ويذهب بجميع آثار وحيها وتأييد الله لها بالآيات والمعجزات، ويذهب بصبره وتصبره، ويزلزل كيان بشريته، فيحزن حزنًا بلغ به مبلغًا غدا معه مرارًا كي يتردّى من رءوس شواهق الجبال، ويتبدّى له أمين الوحي جبريل عليه السلام، فيخاطبه عيانًا مشافهة: يا محمد، إنك رسول الله حقّا، فيرجع عن عزيمته، ولكنه لا يلبث حتى يعود لمثل ما صنع، فيتبدّى له جبريل، ويقول له: يا محمد، إنك رسول الله حقّا.

إن هذه الأبطولة المتهافتة، والأسطورة الباطلة، والأضلولة التافهة، أبطولة البلاغ الزائف وأسطورة الحزن اليائس،

---

(١٤) أُبن بكذا اتهم به. أبنَ يأبن أبنا أي عاب. انظر العين. (المجلة)
(١٥) زنه بكذا: اتهمه به . انظر تهذيب اللغة. (المجلة)

وأضلولة التخرص المتقحم التي تنسب عزيمة التردي من ذرا الشواهق إلى سيد الوجود خاتم النبيين محمد ﷺ لا يجوز في شرعة العقول السليمة فضلًا عن شرعة الإسلام المنيرة أن تُسوّد بها صحائف أعطر سيرة لأعظم إنسان وأظهر مخلوق عرفته السماء والأرض، فيجب طرحها من أماكن تسويدها من صحائف النبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، نبوة محمد أكرم الأولين والآخرين على الله، ورسالة محمد ﷺ أعز خلق الله عند الله، مهما كان شأن من أقحمها على دواوين السنة وجوامع تحرير الحديث- بلاغًا- أو وصلًا مسندًا، ومداخل الغلط والخطأ والوهل والتوهم على الأكابر أكثر من أن تحصى.

والأصول الإسلامية تأبى هذه الأضلولة الأسطورية، وتشمئز من أسواء تعسفات تأويلاتها، وبذلُ أي جهد في تلمس مخرج لها جهد باطل، وعمل ضائع ووقت مهدر، ولم يجعل الله العصمة عن الخطأ المخدوع والغلط الخادع في الدين أصولًا وفروعًا لأحد كائنًا من كان سوى الأنبياء والمرسلين.

ولو أن أبا بكر الإسماعيلي اقتصر في تعليل ما نسب إلى النبي ﷺ من عزيمة التردي من ذرا الشواهد بعد ما نبّيء- حزنًا على فتور الوحي (أيامًا) على قوله: خوفًا مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعًا لكان غير مقصي عن منازل التأويل المتعسف الذي ينزل في أدنى منازل القبول الممرّض، فيقال فيه (لا بأس) إن كان لا محيص عن قبول

تأويل متعسف.

وأبو بكر الإسماعيلي يخلط بين ما يمكن أن يكون تأويلًا مقبولًا للخشية في قوله ﷺ: (خشيت على نفسي) عقيب عودته إلى أهله من مفاجأة الغار، فسقط في هاوية تأويلها مَن تقحّم متخرّصًا أن المراد بها أن يكون ما رآه في الغار من الكهانة أو الجنون، وانتهض الإسماعيلي لتلمس تسويغ هذا القول الفاسد والدفاع عنه بما ناقشناه فيه طويلًا، وأبطلناه إبطالًا دامغًا- وبين ما لا يمكن أن يصلح تعليلًا لما نسب إلى النبي ﷺ من عزيمة التردي من ذرا الشواهق.

تمثيل مفسد فاسد لا محصل له:

فقوله هنا: خوفًا مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعًا، يمكن أن يكون تأويلًا سائغًا للمراد من الخشية، فمكانه هناك، لا هنا.

ولكن الإسماعيلي يأبى إلا أن يؤكد التزامه قبول بلاغ الحزن اليائس، وتسويغ ما جاء فيه فيضرب لذلك مثلًا، فقال: كما يطلب الرجل الراحة من غمٍّ يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلًا، حتى إذا تفكّر فيما فيه صبره على ذلك من العقبى المحمودة صبر واستقرّت نفسه.

والعجيب أن أبا بكر الإسماعيلي- وهو من أئمة المحدّثين-

لا يقيم أبدًا في مُثُله التي يضربها لبيان ما يقصد إليه وزنًا لخصائص النبوة في امتيازاتها وآثارها، فالنبي ﷺ لا يزيد في مُثُل الإسماعيلي المضروبة عن رجل، أي رجل يطلب الراحة من غم ناله، فأراد أن يتخلص منه ويرتاح، ولو بهلاكه نفسه، حتى إذا تفكر فيما يؤدي إليه الصبر من العواقب المحمودة، فإنه حينئذ يصبر وتستقر نفسه، ويعدل عن عزيمته، ولو كانت عزيمة الانتحار.

أليس هذا هو حال كل إنسان من المعرّضين في الحياة لنزول الهموم والغموم بهم، وحلول الرزايا والبلاء بساحتهم، فيضيقون بها ذرعًا، وتضعف أنفسهم عن احتمالها، وتسد أمامهم أبواب الخلاص منها، ويملأ الحزن اليائس أفئدتهم، وتسودُّ الحياة في أنظارهم، وتطفئ نور الإيمان - إن كانوا مؤمنين - من قلوبهم، وتظلم أرواحهم فلا يجدون سبيلًا لمواجهة الحياة فيعمدون إلى الخلاص من حياتهم، ويقدمون على التي لا شوى لها، فيقتلون أنفسهم.

وقد تتدخل أمور وعوامل لا مدخل للإرادة فيها، فتدرك هذا الإنسان، وهو يمشي إلى عزمته، فتوقف سيره، وقد يطلع على هذه العزيمة وهي تمضي إلى طريق آثارها الفاجعة من يحاول رد صاحبها عن تنفيذها بما يهوّن عليه من شأن عواملها الباغتة، أو بما يعلمه من تكذب ظنونه وأوهامه عليه، فيتنبه صاحب الحزن اليائس ويفيق من غمرات خواطره السوداء،

ويعتصم بالصبر على ما نزل به مؤملًا في عاقبته المحمودة.

هذا تمثيلٌ جانبه التوفيق، وباعدته الاستقامة؛ لأنه تمثيل مجحف أشد الإجحاف بما يجب للنبوة من قداسة وإجلال، وأبسط درجات تقديسها وإجلالها في أول مراتبها من الوحي استحضارُ أن الله تعالى استوجب العصمة لمن اصطفاه لها، فجعله معصوما في باطنه وظاهره عن أي انحراف في غير جادتها، وحفظه عن الانزلاق لما ينافي موجبات القداسة والإجلال.

فكيف صحّ تمثيل النبي ﷺ في محنة فترة الوحي برجل- أي رجل- كما هو صريح المثل المضروب، وهو ﷺ كان قد نبّئ قبل هذه المحنة، ولكن المثل المضروب لم يفرض لوجود النبوة أثرًا من الآثار الواقية من الانزلاق في هاوية الشك والارتياب.

ذلك الشك الذي يقتضيه لزومًا تفسير المراد من (الخشية) في حديث عائشة (قد خشيت على نفسي) بما تخرصه المتخرصون في قول منحرف المنزع، إلى درجة إهدار عواصم عموم الإيمان عند عامة المؤمنين برسالة نبينا محمد ﷺ، بل إلى درجة إهدار عواصم النبوة وقداستها.

بل يُزنُّ النبي ﷺ - وهو منبأ- بأنه خشي أن يكون ما رآه في مفاجأة الغار ولقاء ملك الوحي جبريل عليه السلام، وإقرائه ما أنزل عليه من القرآن- من قبيل الكهانة أو الجنون.

وقد عرفنا أن أئمة الهدى والعلم أنكروا هذا القول الفاسد أشد الإنكار، وأبطلوه أبلغ الإبطال، وقال عنه الإمام ابن حجر: (وحُق له أن يُبْطَل)، ولكن أبا بكر الإسماعيلي يندب نفسه وقلمه وفكره وعلمه للدفاع عن هذا القول الباطل، ويلتمس له تعاريج المسوّغات في عماء ظلمات (العلم الضروري).

وقد بيّنا أنه يستحيل تحقيق (العلم الضروري) بأكثر ما تحققه النبوة بوحيها وعواصمها، ولكن النبوة لم توضع في ميزان (العلم الضروري) في دفاع أبي بكر الإسماعيلي عن القول الزائف في بيان المراد من تفسير الخشية في قوله ﷺ لخديجة: (قد خشيت على نفسي).

وذلك الشك الذي يقتضيه لزومًا قاطعًا بلاغُ الحزن اليائس، وما تضمنه من تخرصات على أشرف الخلق وأكرم المرسلين، محمد خاتم النبيين، تلك التخرصات التي جعلته ﷺ يعيش- بعدما نبئ وأرسل- زمنا لا يتهم بالقِصَر وقلة الساعات والأيام والشهور، بل ربما السنين، هو زمن فترة الوحي، بعد ابتداء نزول القرآن- يغدو في رائعة النهار مرارًا وتكرارًا إلى شواهق الجبال لكي يرمي نفسه من فوقها ليقتلها تخلصًا مما هو فيه من حزن يائس، ويتجلّى له أمين الوحي جبريل عليه السلام عيانًا في صورة ملائكية بروحانيته العليا، ويقول له: يا محمد!! إنك رسول الله حقّا، فلا يثنيه ذلك عن عزيمة التردي من الشواهق إلا ريثما يرجع، ويتوارى جبريل،

ثم يعود إلى غدوه إلى الشواهق ليرمي نفسه من فوقها، ويعود جبريل إلى التجلي والظهور مرة أخرى قائلًا له جهرة مشافهة: يا محمد!! إنك رسول الله حقّا.

ومن حق أي عاقل- ولو لم يكن مؤمنًا برسالة محمد ﷺ- أن يتساءل: هل كان النبي ﷺ وهو يغدو مرارًا للتردي من شواهق الجبال موقنا بأنه نبي الله ورسوله إلى عباده؟ وهل كان لهذه النبوة المرسلة موجبات وعواصم تقتضيها طبيعتها الإلهية التي جعلها الله من خصائصها، لتحفظ النبي ﷺ في تلقيه الوحي عن الله، وفي تبليغه إلى عباده ليتابعوه في تطبيق أحكامه وشرائعه، عن الانحراف عن جادة النبوة؟

وجواب هذا التساؤل قطعي لا يعتريه ارتياب، فالنبي ﷺ مبلِّغ عن الله، تجب متابعته في كل ما يبلغه، فلو لم يكن في جميع لحظات حياته نبيًا على أكمل اليقين بنبوته لجاز عليه أن لا يوقن بما يتلقاه من الوحي، ولو جاز عليه أن لا يوقن بما يتلقاه من الوحي لجاز أن يبلغ ما لا يوقن بأنه من عند الله، ولو جاز ذلك لانعدم اليقين بالشريعة كلها أصولها وفروعها، وهذا هو المحال بعينه. والباطل بمفاسده.

إذن فكيف يجوز أن يقع ما زعم المتخرّصون بتفسير (الخشية)، وبقبول بلاغ الحزن اليائس أنه وقع للنبي ﷺ من كل ما عرضنا له في البحث، وأبطلناه، إبطالاً لا يترك له أثرًا في محصلات العقول.

ويتفرع على هذا التســاؤل تساؤل آخر، هل كان النبي ﷺ موقنـا بـأن الذي تجلّى لـه وخاطبه: يا محمد إنك رسـول الله حقّـا مرتين أو مرات- كما يقتضيه قول المتخرّصين في نص عبـارة البلاغ الزائف، كلما أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل- هو أمين الوحي جبريل عليه السـلام؟ وهذا ما يقتضيه صريح الحديث، وإذا كان موقنًا بذلك فكيف عاد إلى عزيمة التردي؟

وإذا لـم يكن النبـي ﷺ موقنًا بأن الذي تبـدّى له هو أمين الوحـي جبريـل، فكيف تلقى عنه ما نزل مـن آيات القرآن في مفاجـأة الغـار قبل فترة الوحـي؟ هل تغير عليــه حاله؟ فعرفه وتيقـن به في مفاجأة الغار، ولم يعرفـه كلما أوفى بذروة جبل ليلقي نفســه مـن فوقهـا؟ وكيف اطمـأن إلى حقيقتـه ووثق بالوحي يتلقاه منه بعد أن حمي الوحي وتتابع؟

وممـا يؤكد بطلان بلاغ الحزن اليائس (أن الإمام أبا جعفر الطبـري يروي في تاريخه عن طريق النعمان بن راشـد عن ابن شهاب الزهري نفسه- وهو عماد بلاغ إرادة التردي من شواهق الجبـال حزنًـا على فتور الوحـي- ما يفيد أن ما نسـب للنبي ﷺ مـن إرادة إلقاء نفســه من رءوس الجبـال لا علاقة له بفترة الوحي، ولم يكن أثرًا لحزن يائس يدفع النبي ﷺ إلى التخلص من حياته، وإنما كان متقدمًا في زمنه على فتور الوحي؛ لأنه- كمـا يقول ابن حجـر أخذًا مـن كلام الإسـماعيلي- كان في ابتـداء مجيء جبريل إلـى النبي ﷺ، قال ابن حجر في الفتح:

وأما المعنى الذي ذكره الإسماعيلي - أي تعليله لإرادة النبي ﷺ إلقاء نفسه من رءوس الجبال لضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفه مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعًا - فوقع قبل ذلك - أي قبل فترة الوحي - في ابتداء مجيء جبريل، ويمكن أن يؤخذ ما أخرجه الطبري من طريق النعمان بن راشد عن ابن شهاب، فذكر نحو حديث الباب، وفيه: فقال لي: يا محمد أنت رسول الله حقّا، قال: (لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل).

وذلك يحتمل أن يكون وقوعه في موضعين من مواضع قصة (بدء الوحي).

الموضع الأول - عند استعلان جبريل وظهوره علانية يقظة للنبي ﷺ عقب رؤياه المنامية وشق بطنه، كما جاء في حديث ابن أبي بكر بن حزم، قال: ثم استعلن به جبريل، وبشره برسالة ربه حتى اطمأن.

والموضع الثاني - عقيب خروجه من متعبده في حراء عائدًا إلى أهله بعد قضاء جواره، كما جاء في حديث عبيد بن عمير، قال: (فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل).

وكل واحد من هذين الموضعين متقدم في زمن وقوعه على فترة الوحي المعينة بزمن واقع بين نزول أوائل سورة (اقرأ) وبين نزول أوائل سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وهذا الزمن الواقع بعد نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وقبل نزول أوائل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ هو الزمن الذي زعم فيه وقوع الحزن اليائس، وإرادة التردي من شواهق الجبال.

هل اختلف الأمر على الزهري أو على راوييه؟

فابن شهاب الزهري عينه في روايتي راوييه: معمر في حديث البخاري من كتاب (التعبير) من الجامع الصحيح، والنعمان بن راشد في حديث الطبري، اختلف على نفسه، فأخبر مرة بلاغًا بما رواه عنه معمر، وأخبر مرة أخرى إرسالًا عن رسول الله ﷺ بما رواه عنه النعمان بن راشد، أو اختلف عليه راوياه: معمر والنعمان، فمعمر يروي عن الزهري بلاغًا أن الوحي فتر- بعد نزول أوائل (اقرأ) في أول لقاء يقظي مفاجئ للنبي ﷺ بجبريل في مفاجأة الغار- فترة حزن فيها النبي ﷺ حزنًا غدا معه مرارًا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، وهذا صريح في أن ما نسب للنبي ﷺ من إرادته إلقاء نفسه من رءوس الجبال إنما كان في زمن فترة الوحي.

والنعمان بن راشد يروي عن الزهري نفسه مرسلًا عن رسول الله ﷺ أنه حين استعلن له جبريل وقال له: يا محمد

أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: (لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل) وهذا صريح في أن ذلك كان قبل فترة الوحي، ولا مدخل لهذه الفترة في أن يقول النبي ﷺ ذلك، فإن كان ما زعموا قد كان فليس زمن فترة الوحي زمنًا له، وقد جعل في حديث معمر زمنًا له، فتناقض واختلف.

ولا شك أن الاختلاف في الرواية والنقل عن شخصية واحدة في موضوع واحد إلى درجة التناقض الزمني يضعف من قيمة الرواية، ويرفع الثقة بها ويقضي بعدم قبولها، وإذا كان الأمر يرجع إلى الترجيح بين الروايتين فالمرسل الثقة أرجح من البلاغ، وهذا لا ينفي أن يكون المرسل ضعيفًا من جهة أخرى.

ولا نتوهم قط أن عاقلًا يذهب إلى تكرار الواقعة، فتكون كل رواية من الروايتين تحكي عن الزهري واقعة مستقلة بزمنها وموضوعها؛ لأن ذلك يتعاظم على الخيال أن يتصوره، فضلًا عن أن يصدقه ويتقبله، وإلا كانت حياة سيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ أعجوبة في حيوات الناس، بَلْه الأنبياء والمرسلين؛ لأنه بمقتضى هذا التوهُّم يفقد كل خصيصة من خصائص النبوة، فكلما حزبه أمر أو اشتد عليه حادث لجأ إلى التخلص من الحياة، والنبوات كلها شدائد متتابعة، ومحن لازمة، وفدائح لازبة، وبلايا متوالية، وعدتها الصبر الصبور، ونبينا محمد ﷺ سيد الصابرين: جمع الله له في خصائصه صبر أولي العزم من الرسل، وأمره أن يتحلى به فقال له:

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥)

فمن المحال أن يقع له ما زعم عليه بلاغًا أو إرسالًا، بله أن يتكرر.

ووجه أن ما جاء في حديث النعمان بن راشد عند الطبري يؤكد بطلان بلاغ الحزن اليائس -زيادة على أن اختلاف الرواية عن شخصية واحدة وموضوع واحد يرفع الثقة بها ويوهنها- أن استعلان جبريل للنبي ﷺ في صورته الملائكية الهائلة، وهو يخاطبه عيانًا يمكن أن يكون قد أفزع النبي ﷺ وأدهشه، لأنه منظر هائل لم يألفه النبي ﷺ قط في حياته قبل النبوة، ولا هو داخل قط في مألوف البشر قاطبة.

فليس من المستبعد أن يدهش ويفزع من هذا المنظر بمقتضى طبيعته البشرية، لا سيما عقيب إفاقته ﷺ من روع شق بطنه الذي رآه في منامه، كما جاء في حديث ابن أبى بكر بن حزم، وهو الموضع الأول من مواضع احتمال وقوع ما ذكره الإسماعيلي في رأي ابن حجر، أو بعد خروجه من غار حراء عائدًا إلى أهله بعد أن أتم جواره وبعد رؤياه نمط الدبياج الذي غتَّه به الملك حتى بلغ منه الجهد، وبعد إقرائه في تلك الرؤيا أوائل سورة (اقرأ) تمهيدًا لمفاجأة الغار واللقاء اليقظي فيه، وهو الموضع الثاني من مواضع احتمال وقوع ما ذكره الإسماعيلي كما جاء في حديث عبيد بن عمير.

فالنبي ﷺ كان في هذين الموضعين معرضًا للدهش

والفزع بمقتضى دوافع الطبيعة البشرية، فإذا لاحقه ﷺ وهو في دهشه وفزعه منظر تجلي جبريل وظهوره له في صورته الملائكية الهائلة، يخاطبه: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، ليخرجه من غمرة دهشه وخواطر فزعه البشري إلى حقيقة واقعه الروحاني، وموجبات رسالة ربه إلى عباده لم يكن غريبًا أن يشتد دهشه، ويتضاعف فزعه في دائرة بشريته، ولكن لا يمكن أن يطغى دهشه وفزعه على موجبات نبوته التي يعيش في أنوارها، فهو ﷺ كان ساعتئذ نبيًا يوحى إليه من ربه، يكلَّم ويعلَّم، ويرى ويسمع من أنباء الغيب وعجائب الكون، فيجب أن يكون عنده من اليقين بنبوته ما يستحيل معه أن يبلغ به الدهش والفزع من هول المنظر في ظهور جبريل له بصورته الملائكية ومخاطبته بأنه رسول الله، درجة تدفعه إلى ما لا يكون من الجزع والهلع عند كثير من خواص المؤمنين، بله الأنبياء والمرسلين، فضلا عن خاتم النبيين محمد ﷺ.

فإقحام حديث النعمان بن راشد عن الزهري أبطولة تقويل النبي ﷺ وجبريل يخاطبه أنه رسول الله، هذه الكلمة (فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل) بيَّن القلق جدًا في موضعه من الرواية، إذ لا يظهر لذكره هنا سببٌ يسوغ مجيئه سوى مجرد الدهش والفزع من هول منظر جبريل في تجليه وظهوره على صورته التي ظهر بها، وهذا وإن سوغ شدة

الدهـش والفزع لأنه منظر لم تألفه الطبائع البشـرية، لكنه لا يسـوغ الإخبار دون مناسـبة بما نسـب للنبي ﷺ في زعم من قـال: (لقد هممـت أن أطرح نفسـي من حالق جبـل) لأنه لا ارتبـاط مطلقًا بين ما يمكن أن يحصـل من الفزع لرؤية صورة هائلـة لملك الوحي وبين هذا القول المنسـوب إلى النبي ﷺ بأنه قد هم أن يطرح نفسه من حالق جبل.

ولا شـك أن شـدة الدهش والفزع من رؤية الغرائب الهائلة المفزعـة للطبيعة البشـرية له آثاره التي تقع لكل من يشـاهد شيئًا من هذه الغرائب المفاجئة.

وقد ذكر مرسـل عبيد بـن عمير الآثار الطبيعيـة المعقولة التـي وقعت للنبي ﷺ مـن رؤيته منظر جبريل في صورته التي تبدى له فيها وهو خارج من جواره، حتى إذا كان في وسط من الجبل سـمع صوتًا من السماء فرآه فقال النبي ﷺ: «فوقفت أنظـر إليه، فما أتقدم، وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه فـي آفاق السـماء، فلا أنظـر ناحية منها إلا رأيتـه كذلك، فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي».

هـذا هو الأثر الطبيعي المعقول لما يقع من الدهش والفزع عند مفاجأة المناظر الهائلة الغريبة.

أمـا أن يُلصق بالوقائع ما ليس معقـولًا، ولا تقتضيه طبيعة الأحـداث، فهذا ما لا تقبله العقول السـليمة، ولا تقره الفطر النقية.

فتور الوحي كان لطفًا من الله ورحمة بنبيه ﷺ :

وإذا كانت المواضع التي يمكن أن تقع فيها شدة الدهش والفزع لأسبابها المعقولة لا تحتمل قط حديث التردي من شواهق الجبال، ففترة الوحي (أيامًا) بمقتضى حديث ابن عباس، وكما جزم به ابن حجر في الفتح أبعد ما تكون عن ذلك، فهي إنما كانت لطفًا من الله بنبيه ﷺ ورحمة به، ليستجم من عناء ما لاقى من روع المفاجأة، وشدة الغط، لاستفراغ بشريته ليزداد تشوفًا وشوقًا إلى تتابع الوحي، وأخذه بقوة روحانية مجانسة لروحانية الملأ الأعلى وتثبيتًا له ﷺ، وتقوية لروحانيته على احتمال ما يتوالى من الله إليه حتى يتم استعداده لتبليغ رسالته إلى الخلق بصبر وقوة وشغف، ويقين لا يدانيه يقين في أن الله تعالى سيتم عليه ﷺ نعمته، فلم تكن مستوجبة لحصول هذا الحزن اليائس الذي يدفع إلى التخلص من الحياة بصورة تنفر منها طباع النفوس البشرية المستقيمة، فضلًا عن نفوس المصطفين لرسالات الله، وهداية الخلق، وفضلًا عن نفس سيد المرسلين محمد ﷺ .

أما ذكر الهم بالطرح من رءوس الجبال منسوبًا إلى النبي ﷺ في حديث النعمان بن راشد عن الزهري فقد يكون له تخيل وجه مناسبة، وهو الفزع المفاجئ من هول منظر جبريل في صورته التي تجلى بها للنبي ﷺ، لكن تحقق النبوة

بمراتب وحيها وإشراق أنوارها، وموجبات قدسها وعواصم خصائصها كان عاصمًا للنبي ﷺ من وقوع ذلك، فذكره في الحديث وَهَلٌ عن عواصم النبوة وموجبات قداستها[١٦].

موقف تثبيت وبشارة لا موقف تغضب ويأس:

ومما يزيد في نبوِّ القول المنسوب للنبي ﷺ وقلقه في موضعه من حديث النعمان أنه جاء عقب قول جبريل له: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فلا مناسبة له في هذا الموضع الذي هو موضع غبطة وطمأنينة، ومسرة بإنعام الله، وبهجة بما نال من فضله، فكيف يجيء هذا القول المتغضب في موقف الرضا والشكر، فهل كان فزع النبي ﷺ من رؤية جبريل في صورته التي ظهر بها في أفق السماء هو الحامل له ﷺ على هذا القول، كيف وقد سبق للنبي ﷺ أنه رأي جبريل منامًا ثم استعلن له وبشره برسالة ربه حتى اطمأن، كما جاء في حديث ابنِ أبى بكر بن حزم وقد حدَّث خديجة بهذا الاستعلان مغتبطًا به فقال لها: «أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام، فإنه جبريل استعلن لي بأن ربي أرسله إليَّ» كما في رواية أبي ميسرة عند البيهقي، وقد بيَّنا أن الفزع وإن كان ممكن الوقوع لكنه لا يمكن أن يبلغ درجة تذهب معها عواصم النبوة.

(١٦) الوهل: الوهم والسهو والغفلة. (المجلة)

وحديث النعمان بن راشد عند الطبري عن ابن شهاب الزهري يرى فيه ابن حجر أنه في أصل موضوعه وقصته هو عين حديث معمر عن الزهري عند البخاري في كتاب التعبير من الجامع الصحيح فيقول: وأما المعنى الذي ذكره الإسماعيلي -أي في تعليله لإرادة إلقاء نفسه من رءوس الجبال، بضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفه مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعًا- فوقع قبل ذلك في ابتداء مجيء جبريل، ومعنى ذلك أن هذا التعليل أنسب بأن يكون تفسيرًا لقول النبي ﷺ وهو يحدث أهله بخبر ما وقع له في غار حراء عند أول لقاء يقظي بجبريل: «قد خشيت على نفسي» ولا معنى لجعله تعليلًا -في زعم الزاعمين- لإرادة إلقاء نفسه من رءوس الجبال، وقد بيَّنا في صدر البحث أن تفسير الخشية بذلك هو أرجح الأقوال في المراد منها، وإن كان ابن حجر رجح عليه غيره من الأقوال، وقد استوعبنا البحث في مكانه.

ثم قال ابن حجر: ويمكن أن يؤخذ مما أخرجه الطبري من طريق النعمان بن راشد عن ابن شهاب فذكر نحو حديث الباب، وفيه فقال لي: يا محمد أنت رسول الله حقًا، قال: «فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل».

وهذا هو موضع الدلالة من كلام ابن حجر على أنه يرى وحدة الموضوع والقصة في حديثي معمر والنعمان عن

الزهري، وما يرى من الاختلاف بين الروايتين هو الحامل لابن حجر على التعبير بقوله: «فذكر نحو حديث الباب» إيثارًا للدقة في التعبير وأداء المعنى المقصود.

وفي ذلك ترشيح لما ذهبنا إليه من وحدة موضوع (بدء الوحي) وقصته في جميع الروايات مع اختلافها في تناول الوقائع والأحداث، وإن هذا الاختلاف ليس اختلافًا في أصل الموضوع، وإنما هو أسلوب في الأداء أدت به كل رواية ما أتيح لراويها من القصة، وهي في مجموعها يكمل بعضها بعضًا، ويتألف منها جميعًا وحدة موضوعية تجمع وقائع القصة كلها.

ومن لطائف التوفيق أن الباحث لا يكاد يعثر على موضع من صميم الحقيقة اختلفت فيه الروايات، ويكاد يكون الاختلاف بينها محصورًا في الأمور التي أقحمت إقحامًا على موضوع القصة وحقائق أحداثها، مما نبهنا عليه وناقشناه في إسهاب، كتفسير (الخشية) والاختلاف في بيان المراد منها، وكأبطولة إرادة التردي من شواهق الجبال، وكنزول آيات أوائل سورة (اقرأ) منامًا، وما يجري هذا المجري في اختلاف الروايات، أو مما لم تكن البيئة مساعدة على تحقيق الحق فيه، كالاختلاف في سن البعث والإقامة بمكة، وجملة العمر النبوي المبارك مما حققناه بإسهاب رواية ومعنى، والتكلان على التوفيق.

ومن أعجب ما عجبنا له في سبحات هذا البحث أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده -وهو حامل لواء الثورة الإصلاحية الدينية في هذا العصر على دعاة الأساطير والأبطولات الملصقة إلصاقًا بأصول الإسلام وفروعه في عقائده وتعبداته وتشريعه- يتقبل أبطولة الحزن اليائس، ويحكي مصدقًا أقصوصة إرادة التردي من رءوس شواهق الجبال المنسوبة إلى رسول الله ﷺ في بلاغ معمر بن راشد عن شيخه ابن شهاب الزهري: ملحقًا بموضع واحد فقط من مواضع رواية البخاري في الجامع الصحيح المتعددة لحديث عائشة رضي الله عنها في (بدء الوحي).

والأستاذ الإمام محمد عبده كان من أعرف الناس بآثار هذه الأبطولات التي أقحمت إقحامًا على المعارف الإسلامية وروايات السنة المطهرة، وكان من أحق أهل العلم والمعرفة برعبلة(١٧) وإنكار هذه الأقصوصة وبهرجتها وإظهار بطلانها، بما كان له من فضل في رجحان عقله، وسعة علمه، وثقافاته الأجنبية، ومخالطاته لدعاة تلك الثقافات، وبحوثه معهم فيما يتقولونه على الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، وما يهتبلونه من وجود هذه الأبطولات التي تنسب لنبينا خاتم النبيين محمد

---

(١٧) الرعبلة: تقطيع الشيء وتمزيقه مزقا، والبهرجة إظهار رداءة الشيء، يقولون درهم بهرج أي زائف رديء الفضة. انظر تهذيب اللغة، وانظر العين. (المجلة)

ﷺ أشياء هو منها براء، وهي أبعد ما تكون عن ساحته، وما كان ويكون لأمثال هذه الزائفات من خطر داهم على عقول الخاصة والعامة، لا سيما ما ينشر عن طريق الاستشراق والمستشرقين والتبشير والمبشرين، من أكاذيب وافتراءات تعتمد على أمثال هذه الأبطولات ووجودها في كتب إسلامية لها اعتبارها ولها قدرها العلمي في ميزان المعارف الإسلامية.

فالشيخ محمد عبده يقول في تفسير سورة (والضحى): وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ حزن لفترة الوحي حزنًا غدا منه كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، ولكن كان يمنعه تمثل الملك له وإخباره بأنه رسول الله حقًا.

وأبطولة إرادة التردي من شواهق الجبال لم تكن حديثًا مسندًا موصولاً، وإنما هي بلاغ حكاه معمر عن شيخه الزهري دون إسناد، وقد أشبعنا القول في مناقشة هذه الأبطولة وبيان بطلانها سندًا ومتنًا في بحثنا مع أبي بكر الإسماعيلي.

موقف ينبو عنه مقام الشيخ في علمه وفضله:

فتسليم الشيخ محمد عبده لرواية هذه الأبطولة وتقبلها وإطلاق حكايتها عن الصحيح لم يكن مما يلائم مكانة الشيخ في فضله وعلمه واستنارة عقله، وعرفانه بالآثار السيئة والأخطار الداهمة لهذه الأبطولات على العقول التي تنظر في معارف الإسلام، لتعرف منها خصائص رسوله ورسالته الخاتمة

لرسالات السماء، عسى أن تهتدي بهديه وهديها.

وكيف رضي الشيخ عبده لعقله وتفكيره أن يتقبل ويسلم أن النبي ﷺ وهو نبي ورسول من عند الله أن يبلغ به الحزن على فتور الوحي درجة تفقده معالم نبوته وعواصم رسالته، فيحاول أن يقتل نفسه يأسًا من حياته؟

هذا من أعجب العجب، وأعجب منه أن يجيء من عالم ملأ اسمه قلوب المتطلعين إلى تنقية دواوين الإسلام وكتبه مما أقحم عليها، وأدخل فيها بحسن نية أو بسوء نية، من الشيخ الإمام محمد عبده في عصر يحس فيه المسلمون في شتى أقطارهم بحاجتهم الشديدة إلى النهوض إلى معرفة دينهم معرفة صحيحة خالصة من الشوائب الدخيلة، كما أتاهم به نبيهم محمد ﷺ، وتلقاه عنه أصحابه صافيًا نقيًا من الأساطير والأباطيل.

وللشيخ الإمام مواقف محمودة كثيرة، كان فيها أسوة للذين يحاولون أن يردوا الدين إلى نقائه وحيويته في النهوض بالأمة، اجتهد فيها لدينه ولأمته، فليس يكفي في قبول الحديث عنده صحة سنده، بل لابد في قبول ذلك من صحة المتن بعدم معارضته لدلالة العقل.

ومن ذلك أنه توقف في قبول حديث لبيد بن الأعصم في سحر النبي ﷺ الذي رواه البخاري، بل صرح برفضه والإنكار له فقال في تفسير الفلق: وأما الحديث فعلى فرض صحته هو

آحـاد، والآحاد لا يؤخـذ بها في باب العقائـد، وعصمة النبي من تأثير السـحر في عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ فيها إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون.

فهل كانت عصمة النبي ﷺ من تأثير السـحر أعظم مقامًا ومكانـة في العقيدة مـن عصمته من تأثير حـزن يُفقِده معالم نبوته وعواصم رسـالته، فيجعله يغدو مرارًا لكي يقتل نفسـه بإلقائها من أعلى شـواهق الجبال حتى بعد أن تمثل له الملك وأخبره بأنه رسول الله حقًا؟ فإنه لم يكد يمتنع عما عزم عليه لتمثل الملك له، وإخباره له بأنه رسول الله حقًا حتى يعود مرة ومرة ليتردى من حالق جبل، كما يقول بلاغ الحزن اليائس.

وكلام الشـيخ الإمـام فـي موضعيـه مـن تفسـير سـورة (والضحى) وتفسـير سـورة (العلق) صريح في إفادة أن فترة الوحـي -التي زُعـم فيها على النبي ﷺ أنه حزن حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردى من شواهق الجبال- هي الفترة التي كانت في ابتداء الوحـي بعد مفاجأة الغار، ونزول أوائل سـورة (اقرأ)، فليست هي الفترة التي كانت سببًا لنزول سورة (والضحى)، وأن هذه الفترة غير تلك كما تدل عليه ظواهر الحديث، وهو الذي ذهب إليه جمهور العلماء، قال الإمام ابن حجر في الفتح: والحق أن الفترة المذكورة في سـبب نزول سورة (والضحى) غيـر الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإن تلك دامت أيامًا، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثًا.

بيد أن من يمعن النظر في كلام الشيخ محمد عبده قد يظهر له منه ما يفيد أنه جعل فترة الوحي التي حزن فيها النبي ﷺ حزنًا غدا منه مرارًا للتردي من رءوس الجبال هي فترة الوحي التي سبقت نزول سورة (والضحى) وكانت سببًا لنزولها، فهُما في رأيه عند التأمل فترة واحدة، قال الشيخ: اتفقت الروايات على أن سبب نزول هذه السورة -أي سورة (والضحى)- هو حصول فترة في توالي الوحي على النبي ﷺ فظن أو توهم، أو قيل إن الله تركه وقلاه.. إلى أن قال الشيخ: وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ حزن لفترة الوحي حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردى من رءوس الجبال، ولكن كان يمنعه تمثل الملك له وإخباره بأنه رسول الله حقًا.

فَسَوق الشيخ قوله: وقد جاء في الصحيح إلخ.. دليل على أنه يرى أن الفترة التي كانت سبب نزول سورة (والضحى) هي الفترة التي جاءت في الصحيح بلاغًا عن الزهري، وفيها الحزن اليائس الذي غدا منه النبي ﷺ مرارًا كي يتردى من شواهق الجبال.

غلط الشيخ في سبب نزول سورة (والضحى):

ثم يقول الشيخ الإمام محمد عبده: إنه ليس في نسق السورة -أي سورة (والضحى)- ما يشير إلى أن المشركين أو غيرهم كان بعرض من الخطاب، ومن أين للمشركين أن يعلموا فترة الوحي فيقولوا أو يطعنوا؟

أما الإِشارة في نسق السورة -أي سورة والضحى- إلى أن المشركين كانوا بعرض من الخطاب، وإن كانت المواجهة بـه كانـت لرسـول الله ﷺ، وأنهـم علمـوا فتـرة الوحي، فقالوا وطعنوا، فهي موجودة في أسـلوب السـورة وعبارتها وألفاظها.

ذلك أن القرآن الكريم كلام الله الحكيم الخبير، فأسـلوبه وعباراته وألفاظه لا تقف عند سنن الإِحسان البشري في براعة البيان، ولكنها تعلو فوق ذلك إلى درجة الإِحسـان الإِعجازي، فـلا يمكن أن يحل لفظ مـن خارج ألفاظ القرآن مكان لفظ من ألفاظه في نسـقه البياني، لأن ألفاظ القرآن في نسـق آياته هي التـي وقع بها التحدي، وتم بها الإِعجاز، فلابد أن تكن ألفاظه متسـقة أكمل اتسـاق مع المعاني التي قصد أداؤها بها، حتى كأن بيـن اللفـظ والمعنى نسـبًا وقربى دانية، وهذا يسـتبين بالموازنـة بين أسـاليب البيـان القرآنـي في تأديـة مقاصده، فأسلوب البيان الزاجر المتوعد مغاير تمام المغايرة في ألفاظه القارعة لأسلوب البيان الموعد المرغب في ألفاظه الهامسة.

يلمح ذلك ويشـعر به الناظر ذو الحـس المرهف، والنظر الغـواص المتعمـق، فيحسـه في جـرس اللفظ ونسـق العبارة واسترسال الأسلوب.

فسـورة (والضحـى) بدأت بقسـم مـن الله العلـي الأعلى بأمريـن متقابليـن أكمل ما يكـون التقابل: الضحى بإشـراق

ضوئه المشبوب المشع كالمتوقد، والليل في سجوه وتغطيته الحياة برداء إظلامه السهوم، لتسكن بمن فيها وما فيها، وتخلد إلى أحضان الهدوء.

والقسم في القرآن الحكيم تنبيه وإيقاظ للمشاعر تدليلًا على أكمل العناية بالمقسم عليه لعزته وعلو شأنه عند المقسم ليكون كذلك عند المقسم له، وجاء المقسم عليه ردف القسم، فكان نفيًا لتوديع أو ودع الله تعالى نبيه ﷺ، ونفيًا لبغض الله العلي المتعالي لحبيبه محمد ﷺ.

والتوديع ترك خاص، فيه مفارقة وقطيعة بعد اجتماع ووصال، والودع ترك يشعر بالإهمال وعدم المبالاة، و القلى أشد البغض وأنكره، قد جعله القرآن الكريم عنوانًا على أفظع أنواعا الاشمئزاز والنفرة وأبشع الكراهية والبغض، فأجراه على لسان نبي الله ورسوله لوط عليه السلام، في إنكاره على قومه واستبشاعه ما تسربلوه من أفحش الفحش وأسوأ السوء فقال لهم:

﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴾

(الشعراء: ١٦٨)

وإذا كان ذلك كذلك فلا يتسق مع جلال الأسلوب القرآني في روعة بيانه أن يخاطب الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ وقد فتر عنه الوحي لسبب لا دخل لإرادته فيه، والوحي هو وصلته بالملأ الأعلى وطريقه إلى مشاهد ملكوت الله، واستجلائه

آيات إبداعه في الكون - مغافصة دون تمهيد[١٨]، مقسمًا أعز قسم بأنه لم يترك نبيه وحبيبه ترك قطيعة وإهمال، ولا أبغضه بغضًا يباعده عن مقامات قربه ومنازل شهوده بعد أن أحبه حبًا لم يُنِلْه أحدًا غيره من خلقه؛ لمجرد أن الله تعالى أراد أن يلقي الطمأنينة في نفس نبيه ﷺ -كما يقول الشيخ الإمام- وهذه الفترة للوحي التي كانت سببًا لنزول سورة (والضحى) لم تكن هي فترة القلق والخوف والفزع عند النبي ﷺ حتى تحتاج إلى إلقاء الطمأنينة في نفس النبي ﷺ، ولو فرضنا أن تكون به ﷺ حاجة إلى إلقاء الطمأنينة في نفسه، فليس مما يتسق مع سنة الله تعالى في مخاطبته نبيه محمدًا ﷺ أن يفاجئه الوحي إثر فترة لم تكن أسبابها باختياره بهذه الشدة التي يشعر بها التعبير بلفظ (ودَّع) و(قلى) وإن كانتا في حيز النفي، والنبي ﷺ كان في حاجة إلى التلطف به في الخطاب لمسح ما ألم به من قلق وخوف وفزع - كما يقول الشيخ الإمام.

والشدة التي لاقاها النبي ﷺ في بدء الوحي ومفاجأة الغار إنما كانت لاستفراغ بشريته من العلائق المادية، وإعداده روحيًا لتلقي وحي اليقظة ونزول القرآن الكريم، وشهود عوالم الملأ الأعلى، الذي أنِسَتْ نفسه الشريفة بمطالعة أنواره وشهود آيات إبداعه.

(١٨) غافصته مُغافصة: أخذته على غرة. انظر العين. (المجلة)

وقد تم ذلك كله له ﷺ على أتم وأكمل مراتب الوحي اليقظي والمنامي، وصار ﷺ يعيش حياته كلها متشوفًا إلى لقاء أمين الوحي جبريل عليه السلام، متشوقًا إلى ما يلقيه إليه من وحي الله وأمره ووصاياه، ولذلك قال النبي ﷺ لما نزل عليه جبريل بسورة (والضحى) بعد فترة خفيفة فترها الوحي، لم يأته جبريل فيها «ما جئت حتى اشتقت إليك» فقال له جبريل: وأنا كنت أشد إليك شوقًا ولكني عبد مأمور.

وليست فترة الوحي القصيرة الخفيفة التي نزلت بسببها سورة (والضحى) تنافح عن رسول الله ﷺ وتنضح عنه رشح تقولات أعدائه من المشركين، كالفترة السابقة في بدء الوحي، وهي التي طالت وحزن فيها النبي ﷺ حزن تشوق وتطلع إلى مثل ما رأى وما فهم عن الله، وما ذاق من حلاوة الاتصال بوحيه، لا حزن يأس -كما زعمه الزاعمون- في تقبل بلاغ الزهري ومنافحتهم عنه.

وإذا كان الشوق يصحبه بمقتضى الطبيعة البشرية قلق نفسي، والقلق يشوبه خوف وإشفاق، أن لا تكون النهزة بلقاء المحبوب قد حانت، وقد يبلغ ذلك بصاحب الشوق والإشفاق مرتبة من التحذر وتأرجح التطلعات، وترقُّب الفرص شديدة، قد تبلغ به مضايق اليأس والقنوط، فتدفع إلى ما تدفع إليه من مواقف تخلخل الشخصية واهتزاز روابط التماسك في حيويتها، وتنزلق إلى عزيمة التخلص من الحياة.

عواصم النبوة أعظم من آثار القلق والإشفاق مهما كان مبلغها:

بيد أن هذا إن جاز على أي فرد من أفراد البشرية في مستوى الطبيعة التي لا يميزها عاصم من عواصم الامتياز المتسامي عن الانزلاق في حمأة الضعف البشري، فلن يكون أبدًا مع تحقيق النبوة وعواصمها، فالنبي ﷺ وإن كان بشرًا من الناس في طبيعته الإنسانية، لكنه امتاز على سائر البشر بالوحي إليه واصطفائه بالنبوة، ولابد أن يكون لهذا الامتياز أثره الواقي من انزلاقات الطبيعة البشرية، فلا يجوز عليه ﷺ ما جاز على غيره من أفراد البشر الذين لم تكن له خصائص هذا الامتياز الذي كانت النبوة والوحي عنوانًا عليه، على ما جاء في القرآن الحكيم في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾

(الكهف: ١١٠)

وما جاء في الصحيح من الحزن اليائس الذي زعم على النبي ﷺ، وما رتبوه عليه من آثاره في إرادته التردي من شواهق الجبال، لم يكن حديثًا مسندًا إلى النبي ﷺ بسند موصول موثق، ولا إلى أحد من السابقين الذين عاشوا مع النبي ﷺ هذه الفترة، وإنما جاء بلاغًا عن ابن شهاب الزهري رواه عنه تلميذه معمر بن راشد، وألحقه البخاري بجامعه إلحاقًا في موضع واحد من مواضع روايته حديث (بدء

الوحي) عن عائشة رضي الله عنها ، وهي مواضع متعددة ، ولم يـروه غير البخاري مـن الأئمة الثقات وجهابـذة المحدثين ، وقد أبطلنا هذا البلاغ الزائف في قول مسـهب ، ربما لا يخلو مـن تكرار بعض النصوص لتأكيد زيفـه وبهرجته ، لما يؤدي إليه من أضرار ومفاسد ، كما أوضحناه في كلامنا مع أبي بكر الإسماعيلي .

وقول الشيخ الإمام : -ومن أين للمشركين أن يعلموا فترة الوحي ، فيقولوا أو يطعنوا ؟- مردود بحديث جندب البجلي الذي رواه أصحاب الصحيح : البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير .

ونحـن نتوقـف في الحكـم على الشـيخ الإمام أنـه اطَّلع علـى هذا الحديـث المتفق على صحته ، وتـرك العمل به ، إذ لا مقتضـى لذلك ، ولو أطلع الشـيخ على هذا الحديث وعلى غيـره ممـا يجـرى مجراه في هـذا البـاب لعلم يقينًـا أن من المشـركين من كان جيران سـوء وعـداوة للنبي ﷺ ، وكان فـي طليعتهم عمه أبو لهب وزوجه العـوراء الخبيثة أم جميل بنت حرب ، أخت أبي سـفيان ، حمالة الحطب ، كما سـماها القرآن ، وكان هؤلاء الأعداد جيران السـوء يؤذون رسـول الله ﷺ ويتسـمعون عليه ، ويرقبون مدخلـه ومخرجه ، وصحوه ونومه ، وسـائر حركاته وسـكناته ، وبيوت العرب يومئذ لم تكن كثيفة الحجاب ، تمنع المتسـمع من السمع ، وتحجب

الناظـر من اللمح، وتحول دون المترقـب أن يعرف، وكانوا يسـمعون إلى قراءته في جوف الليـل إذا قام لصلاة التهجد، فلما اشتكي رسول الله ﷺ، فلم يقم لصلاته ليلتين أو ثلاثًا، وفقد جيران السـوء صوته ﷺ بالقراءة فـي هذه الفترة ظنوا به ظن السـوء، وتقولوا عليه بالبهتان ما تقولوا من الشـماتة والطعن، فأنزل الله تعالى عليه سورة (والضحى) تنافح عنه، تلطفًا بِـه وتثبيتًـا لفـؤاده، وردًا لتقولات أعدائه وشـانئيه، وتحريكا لعوامل الشـوق والتشـوف إلى مثل مـا عهد ورأى وسـمع وذاق مـن حـلاوة الاتصـال بالملأ الأعلـى من طريق الوحي.

ونحن نسـوقُ حديث جنـدب بلفظ البخـاري ليتبين منه أن المشـركين كانوا قد علموا بفترة الوحي التي كانت سببًا لنزول سـورة (والضحى)، قـال البخاري: حدثنـا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا الأسـود بن قيس، قال: سـمعت جندب بن سـفيان رضي الله عنه قال: اشتكي رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتيـن أو ثلاثًا، فجاءت امرأة، فقالت يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثًا، فأنزل الله عز وجل

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (الضحى: ١-٣)

وهـذا الحديث وإن لم يصـرح فيه بتعيين المرأة التي قالت للنبي ﷺ ما قالـت، لكن تعيينها بوصفها الخاص قد جاء في روايـة الحاكم من طريق إسـرائيل عن أبي إسـحق، عن زيد بن أرقـم قـال: قالت امرأة أبي لهب لما مكـث النبي ﷺ أيامًا لم ينـزل عليه الوحـي: يا محمد: ما أرى شـيطانك إلا قد قلاك، فنزلت (والضحى).

وما نظن أن الاختلاف الكثير بين الروايات في هذا الموضع هو الذي عدل بالشيخ الإمام عن الأخذ بهذا الحديث في إفادة علم المشركين بفترة الوحي، فقالوا ما قالوا، فأنزل الله تعالى:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (الضحى: ١-٣)

حفـاوة بنبيـه ﷺ، وردًا لافتراءات أعدائـه، لأن هناك قدرًا يـكاد يكـون متفقًا عليـه بينها، وهـو أن سـورة (والضحى) نزلت بسـبب فتـرة الوحي أيامًا قلائل لأمر عرض لرسـول الله ﷺ، فتحـدث بذلـك المشـركون، حديث الشـامت العائب المعيّر، وتحدث غيرهم من المؤمنين حديث المشـفق، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، فتداركه الله بلطفه وتثبيته وتكذيب أعدائـه وشـانئيه، وتطمين أحبابـه المؤمنين بهديه ورسـالته بإنـزال هـذه السـورة الكريمة التي تجبـه المفتريـن بنفي ما زعموه، وتعدد نعم الله الخاصة على نبيه وحبيبه، وتبشّره بأنه

ﷺ لا يزال يزداد شرفًا في رفعة قدره، وفضلًا في علو شأنه، وأن مستقبل أمره أجل قدرًا وشرفًا من حاضره وماضيه، وأن إنعام الله عليه في نهاياته أعظم من إنعامه عليه في بداياته، وأن الحفاوة به في مدارج رسالته، ومصاعد حياته خير له من مطالع اصطفائه، وكأن الله تعالى يقول له ﷺ:

فأنت أيها الحبيب لا تزال في إنعام يتلوه إنعام، ونعمة تتبعها نعم، منشورة مذكورة، تتحدث بها الحياة معك، لتكون قرة عين لك، ولمن صدقوا الإيمان بك، وغصصًا تعترض أنفاس شانئيك وجاحدي قدرك حسدًا من عند أنفسهم ليموتوا بغيظهم، ويشرقوا بغصصهم، ألم أرفع لك ذكرك، فلا أذكر في أشرف مواضع ذكري إلا ذكرت معي؟ أوَلم أجعل الإيمان بك وتصديقك في رسالتك مشاطرًا للإيمان بإلاهيتي فلا أقبل توحيدي إلا مقرونًا بالاعتراف برسالتك، ولا أقبل تعبدي إلا من طريق دعوتك، أنت عبدي ورسولي إلى خلقي، اخترتك يتيمًا فآويتك وتوليتك بكنف ربوبيتي، وحليتك برحمتي، وجعلت خيريتك في أودية عبادتي، وقد عرفتني ربًا كريمًا وإلها أحدًا فهديتك بنبوتي إلى محاب عبادتي، وباعدت بينك وبين الدنيا فلم أشغلك بها عني، فكنت فقيرًا من حطامها فأغنيتك بي عنها، فكنت لي وحدي، فاليتامى ولائذ نفسك، والسائلون ربائب حسك، فاعلَم وعلِّم وتحدث بنعمة ربك ما شاءت لك عظمة خلقك

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)

مِن غار حراء إلى غار ثور

بين طرفي مكة من الشمال إلى اليمين على قيد خطوات فلكية من غار حراء - على نحو فرسخين من شمال مكة على طريق الذاهب منها إلى منى - إلى غار ثور - على نحو ميلين من يمين مكة، على طريق الذاهب منها إلى اليمن - مشى الزمان بخطا يسرع مرة فيوسعها ويتئد أخرى فيقيدها، وهو يشهد بكل ما فيه من وعي وقوة ويقظة بناء صرح الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد ﷺ، عقيدة وتأصيلًا في كفاح صبور وصبر مكافح على مدى عشر سنين، منذ بدأت أنفاس الرسالة تستهل وجودها في الحياة، وتتنزل آياتها على قلب محمد رسول الله ﷺ في أعظم لقاء وأخطر مواجهة، تمت بين مصطفى الملأ الأعلى أمين أمناء الوحي جبريل عليه السلام ومصطفى الكمال البشري أمين أمناء الله في تلقي كلمته، محمد ﷺ بعد اكتمال نبوته في مرحلتها الانفرادية بمراتب وحيها الخاص في مدي ثلاث سنين قبل استهلال الرسالة، لتكون تمهيدًا لانطلاق الإنسانية إلى غايتها المقدورة لها في مدارج الكمال الفكري والاجتماعي مظللا بإشراق الروح واستقامة العقل.

ولما اكتمل البناء العقدي لهذه الرسالة الخالدة، ورسخت دعائمه وتضافرت دلائله وبراهينه وتظاهرت آياته، تهاوت

في سفحه الوثنيات متهالكة، تلفظ آخر أنفاسها، وقامت منائر التوحيد تعلن عن جلال الله تعالى وكبريائه، سامقة سامية، مشرقة مضيئة - تنادى الشرك بوثنياته مستصرخًا جنده جند الشيطان في بأس بليد، وتدبير جازم أثيم، وعناد جحود، توهمًا من ذوي الرءوس الخاوية والبطون المكتظة أن يصدوا بنفخ أهوائهم تيار الإيمان بالحق، وهو يجري في محيط الحياة مزمجرًا كاسحًا أوضار الوثنيات البليدة، شامخًا بعرنينه الأشم، باذخًا بفضله، فتخيلوا وخالوا وتوهموا، وائتمروا وتجمعوا ليبلغوا أربًا صورة الحقد الكفور.

وكان رب محمد ﷺ لهم بالمرصاد، فأبلغه مكرهم وكيد تدبيرهم، وحاطه بعنايته، وتولاه برعايته حتى أبلغه مأمنه، وآواه إلى كنفه، وكنفه بمعيته في نهاية المقام التأسيسي لرسالته، وأدخله آمنا، بصحبة صدِّيقه في غار ثور على بعد خطوات من غار حراء حيث بدأ نور الرسالة يسطع هاديًا مشرقًا، إذ بشره بنصره وإعلاء كلمته

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٤٠)

الدعامة الأولى للرسالة الخالدة هي الكلمة بأكمل أوصافها:

كانت الدعامة الأولى في بناء صرح الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد ﷺ هي (الكلمة)، وهذه (الكلمة) في حقيقتها الإلهية، ومكانها من الرسالة، وواقعها من تاريخ الحياة كانت أضخم عنوان لأعظم حقيقة في وجود الحياة الإنسانية (وتطورها) هذه الحقيقة هي (العلم) بأوسع ما يمكن أن يتصوره خيال، أو يتسع له واقع الحياة في الوجود.

وكانت تلك (الكلمة) التي قام عليها بناء الرسالة الخالدة (اقرأ) وهي كلمة تعني في بنائها الخلق والإبداع، وتعني الخالق المبدع، وتعني مسرى هذا الخلق والإبداع.

وهي دعامة غريبة عجيبة، لم يسبق لها وجود في بناء الرسالات الإلهية التي سبقت رسالة محمد ﷺ، ولم يعرف تاريخ الرسالات الإلهية أن رسالة منها، قام أساس بنائها على (الكلمة)، وهي في منطوقها كلمة واحدة، ولكنها بمضمونها تنطوي على حقائق الحياة والكون.

هذه الكلمة (اقرأ) التي كانت مفتتح وحي الرسالة

الخاتمة الخالدة، وكانت دعامة صرحها هي في نظر العقل «دعامة عجيبة غريبة في جو مجيئها؛ لأنها كانت نبعًا نميرًا في صحراء الحياة القاحلة الجدبة حسًا ومعنى، فقد تفجرت من هذا النبع النمير عيون حياة جديدة، عريضة مخصبة، مادة وفكرًا وروحانية، وسعت الدنيا بأقطارها وحذافيرها، عدلًا، ورحمة، وهدى، ونورًا، وعلمًا، ومعرفة، وإصلاحًا، وخيرًا، وبركة.

بل كانت تلك (الكلمة) بذرة دوحة في غيضة معشوشبة بغير زهر ولا ثمر[١٩]، ولكنها ـ وهي تسقى من السماء ـ نمت جذورها، وتسامت أفنانها، وسمقت أغصانها وأزهرت فروعها، وأينعت ثمارها، وآتت أكلها كل حين بإذن باريها ومبدعها.

بل كانت تلك الكلمة شمسًا في أفق الحياة أشرقت بأضوائها آفاق الكون، فأنارت الوجود على رحبه، وأدفأت المقرورين بحرارة أشعتها[٢٠]، وهدت الحيارى الشاردين من لفح المظالم في لذعات سموم الطغيان والاستبداد الظلوم، إلى ظل من العدل المواسي والتعاون المبرور والإخاء الكريم.

وهي دعامة عجيبة غريبة عن طبيعة الحياة التي اختيرت

(١٩) يقال للأشجار الملتفة بلا ماء، (غينة) فإذا كانت بماء فهي (غيضة) والغيضة المعشوشبة كثيرة العشب. انظر تهذيب اللغة. (المجلة)

(٢٠) القرُّ: البرد. (المجلة)

أرضها لتكون مثابةً لبناء صرح هذه الرسالة الخاتمة الخالدة، تلك هي أرض العرب ومستوطنهم في شبه جزيرتهم عامة، وأرض مكة في حجاز الجزيرة خاصة، وهي أرض لم تسمع آذان أهلها قط هذه الكلمة، ولا عرفوا معناها ومرماها، ولا خطّت شناترهم[٢١] حرفًا من حروفها، فهم أمة أمية شبوا وعاشوا على المعارف القطرية لا يقرءون ولا يكتبون.

وهي دعامة عجيبة في اختيارها ليرتكز عليها بناء أعظم رسالة إلهية عامة، تخرج من أودية أمة أمية، لتخاطب دنيا الإنسانية في جميع أبنائها أينما وجدوا من أرجاء الأرض، لتخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم وضياء المعرفة، وفي أرض الإنسانية بعيدا عن هذه الجزيرة اليابسة في تفكيرها، الجافة في عيشها، علم ومعرفة ونظم.

وهي دعامة عجيبة غريبة عن طبيعة النشأة التي نشأ عليها من اختير لحمل أمانة شرفها في بيئته وبلده، وقومه ومجتمعه، ذاك الأمين الأمي محمد بن عبدالله القرشي المكي، الذي شرَّفه الله مخاطبًا بهذه الكلمة (اقرأ) فجأةً دون تمهيد في أغرب وأعجب لقاء مع أمين أمناء الوحي جبريل عليه السلام، إذ يدخل عليه في متعبده من جبل حراء، وهو وحيد، يسبح بفكره متأملًا في ملكوت الله، مطالعًا آيات ربه في مظاهر

(٢١) الشناتر: الأصابع.

الكون وعجائبه، فيقول له أول ما يواجهه: (اقرأ).

وليسبح الخيال ما شاء في تصوير هذا الموقف وأثره من الدهشة الصادقة، ولكنه لن يجد في موقف محمد ﷺ الهزة التي تقتضيها غرابة المفاجأة، ومفاجأة الطلب، بل سيجد رسوخًا في هدأة الرد على هذا الطلب العجيب الغريب، متمثلًا في صراحة الصدق، وصدق الصراحة، إذ يقول ما يجب أن يقال، متمشيًا مع الحقيقة في واقع الحياة التي شب عليها في بيئته العامة والخاصة: «ما أنا بقارئ» يقصد إلى بيان أمره، ويترجم عن حاله في بيئته وبلده ومجتمعه، ونشأته إزاء هذا الطلب العجيب الغريب، وكأنه ﷺ يقول في رده الصادق الهادئ: «أنا ما كنت قط في حياتي قارئًا، وما كان لي من علم بقراءة، ولا خط يميني بقلم على قرطاس حرفًا قط، فكيف يطلب مني أن اقرأ؟» وجاءه الرد الحاسم بعد مخض الإعداد، فقيل له:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ (العلق: ١)

فقرأ مستعينًا باسم ربه ومن لم يكن قارئًا بتعلم، وأصبح الأمي الذي لم يتعلم كما يتعلم الناس عليمًا معلمًا للدنيا، وصار (الأمي) بفطرته ونشأته صاحب سر الكتاب في كلمته (اقرأ)، وكانت قراءته إعجازًا تكوينيًا، جمعت في لفظها المفرد جميع ما في سطور كتاب الكون من فيض ومدد.

تبيان وتحليل لاختيار الكلمة دعامة للرسالة الخالدة:

والكلمة المقروءة لا بد أن تكون مكتوبة، ومن هنا كان اختيار كلمة (اقرأ) لتكون بما فيها من ومض الروحانية العليا دعامة لأساس رسالة محمد ﷺ، وهي رسالة عامة شاملة خاتمة مهيمنة، فلا بد أن يقوم صرح بنائها على دعامة لها سر خلودها، دعامة فينانة، لا ينفد ماء نبعها ولا ينقطع مددها، أبدية الرفد، سرمدية الصفد، لا ينضب معينها، ولا ينشف عودها، ولا تيبس جذورها، فهي غضة نضرة ما بقيت الحياة، وهي دانية القطوف، ولود ودود، ظلها ممدود، وأثرها في الحياتين محمود.

وكان لا بد للاستعانة على تحقيق ما ليس بممكن نشأة وفطرة من تهيئة الجو للوجود إبداعًا، والإبداع أبلغ في الاقتدار، وأوسع مدى من إمكان النشأة والفطرة؛ ولهذا قيل للأمي بنشأة الفطرة:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾

(العلق: ١، ٢)

فمجيء اسم (الرب) في مقام الاستعانة هنا له خصيصة الإيجاد المتدرج، والإبداع المترسل؛ لأن مادة لفظه مشتقة من نبعة التربية، وهي التي يرمز إليها إيجادًا وإبداعًا وعملًا اسم (الرب) المقتضي بمعناه تتابع التكوين المتدرج في تعهد مصلح، ورعاية سابغة.

وفـي إضافة الاسـم الكريـم إلى عنـوان الخطـاب الموجه لأخص مخاطب سر الاختصاص في مقام الاصطفاء.

ووصـف (الرب) في شـمول ما دلَّت عليه مـادة اللفظ من التربيـة والتعهـد المصلح، بأنه الذي خلـق، والخلق في مقام عدم الإمكان الفطري إبداع لم يسـبق بمثـال ـ تأنيس بإمكان تحقيـق ما ليـس بممكن في مألـوف الطبائع لتقبلـه النفوس مطمئنـة إلـى قهر الاقتدار الإلهـي والإبداع الربانـي مع ودادة اللطف وتحبب الرحمة.

ودائرة الإطلاق فسيحة الجنبات، مترامية الأطراف في تصور الخيـال، وسـيعة الأرجـاء في سـاحة الإمكان، ربمـا تاهت في معالمها ذاكيات العقول، وقرح الفكر، بل ربما ظل في متائهها ومتعرجات مسالكها حذاق الأدلاء، وبصراء الخرِّيتين، فتقييد دائرة الإطلاق ببعض منازله وأقرب منادحه تقريب لآفاق الرجاء في الوصول إلى منائر الهداية ومعالم الرسالة.

وأقـرب منـادح الخلـق إبداعًـا، وأدنى منازلـه إيجـادًا خلقُ الإنسان؛ لأنه أقرب إلى نفسه وأدنى إلى حسه من كل دان قريب.

ومن هنـا جاء تقييد الخلق في هذا المقام بخلق الإنسـان، فقيل بعد الإطلاق: (خلق الإنسان)، وخلق الإنسان قد يساق على أنه إعجاز في الاقتدار، وقد يسـاق علـى أنه آية اقتدار في مقام الاسـتدلال ومنطـق البرهان، واقتـدار الإعجاز خارج عن دائرة منطق البرهنة والاستدلال، فلم يستدعه المقام والاقتدار

في مقام البرهنة، ومنطق الاستدلال هو المقصود هنا بالبيان، ومن ثم جاء التقييد بعد الإطلاق، فقيل:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾

(العلق: ٢)

ومهما تصرفت العقول والأفهام في معنى (العلق) لغة ومعرفة، ومهما كشف العلم من حقائق خلق الإنسان، ومنشئه في تقدير الله تعالى من هذه المادة، فإن خلقه منها - وجعلها مصدر إبداعه - وهو الكائن الذي خلقه الله في أحسن تقويم وأجمل صورة وأعطاه فوق ذلك من سبحات إدراك عقله، وإشراق روحانيته، واستضاءة قلبه بنور الإيمان إذا لم تختلسه خُنَّسُ الشياطِين - أمر بيِّنٌ في دلالته على الاقتدار الذي يقرِّب إلى مدارك العقول، إمكان تحقيق ما كان من طلبِ ما لم يكن فطرة وتعلمًا، فكان إعجازا ومنة حققها الاقتدار الرباني بكرم الإنعام والرحمة.

وفي تخصيص الإضافة هنا بخصيصة الخطاب عينُ ما كان فيها عند مطلع المفاجأة بطلب القراءة، حيث قيل للمخصوص بالخطاب:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ (العلق: ١)

من سر الاختصاص بالاصطفاء المحمدي لحمل أمانة شرف الرسالة الخاتمة الخالدة.

واختلافُ القيد هنا باختلاف الوصف عنه هناك آية على أخص مراتب الرعاية الربانية بمحمد ﷺ في مشرق رسالته، توطيدًا لأكمل مراتب اليقين في نفسه ﷺ؛ حتى يكون إيمانه برسالة نفسه آية إعجازه في مستقبل حياته وإعدادًا له لتحمل ما سيلقى في سبيل تبليغ رسالته.

فقد كان الوصف هناك للاسم الكريم (الرب) في مطلع المفاجأة وطلب القراءة بالخالقية إطلاقًا وتقييدًا؛ ليكون مظهرًا للاقتدار الإبداعي، والإعجاز الامتناني، وجاء الوصف هنا للاسم الكريم (الرب) ببسط أردية الكرم الرباني على الحبيب المصطفى في أبلغ صوره وأعلى منازله، تحقيقًا لأرفع درجات الرعاية الروحانية والحفاوة السابغة التي لا تنتهي إلى غاية، تيسيرًا بأبدية التأييد الأكرم في خلود الرسالة، فقيل له:

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ (العلق: ٣)

ثم جاء الوصف الثاني هنا بما يجري في طبيعة الحياة مجرى الإلف والتعلم بالتعليم مع الامتنان بوسيلة هذا التعلم بالتعليم، وحذف متعلَّق فعل التعليم، فلم يذكر المتعلَّم إخراجًا للامتنان عن دائرة التخصيص إلى آفاق التعميم المطلق، إظهارًا لفضل رب محمد ﷺ الأكرم على أمة محمد ﷺ. وأمة محمد هنا في مقام الدعوة والامتنان الأعم الأشمل هي الإنسانية كلها -انسيابًا من فضله عليه- فقيل:

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٤، ٥)

فهـذا امتنان عـام على الإنسـانية كلها -وهـي مدعوة إلى الإيمـان برسـالة محمد ﷺ أينمـا وجد منها فـردًا وجماعة- منـذ علَّم الله تعالـى أنموذجها الأول آدم عليه السـلام، تعليم اسـتعداد مفطور، جعله في جبلته، واستجلى ظهوره في ذريته جيلًا بعد جيل.

بيـد أن الله تعالـى ادَّخـر التعبد بشـكره على هـذه النعمة الشـاملة لتقـوم بـه خير أمـة أخرجت مـن ضئضـئ آدم عليه السـلام؛ لتكون حاملة لأرفع أمانات التكليـف التعبدية وهي أمانة (العلم) في أوسع مستوياته وأرحب ميادينه، وأعم فنونه ونظرياتـه، وأعمق حقائقه الكونية، ومـا عبد الله تعالى، ولن يعبد بأجل وأعظم من عبادته بالعلم المؤمن.

وقد جرينـا في بحثنا على أنَّ نزول الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ) كان بدءًا لرسالة محمد ﷺ واستهلالًا لميلادها، ومفتتحًا لوحي نزول القرآن يقظةً وهو أجلُّ مراتب الوحي.

تقدم النبوة على الرسالة:

وكانـت نبوة محمد ﷺ متقدمة بمراتـب وحيها وبين يدي رسالته، وكانت الرؤيا الصادقة في النوم أول مراتب وحي النبوة -كما هو صريح حديث عائشـة في كيف بدأ الوحي- وقد تتابع وحي النبوة في دائرتها وزمنها حتى جاء وحي الرسالة في اليقظة

بنزول القرآن الكريم وفجء الحق، ومجيء الملك في غار حراء، فاستقرأه وغطه، وأوحى إليه ما أوحى من آيات القرآن الكريم.

فالنبوة كانت توطئة وتمهيدًا للرسالة، وإعدادًا لشخصية النبي ﷺ روحيًا لتلقي وحي الرسالة والاقتدار على حمل أمانتها تنزلًا في جميع مراتب وحيها، وتبليغًا في عمومها وشمولها زمنًا ومكانًا وأجيالًا وأحوالًا وحقائق عقيدية، وتشريعات تعبدية ونظمًا اجتماعية، وطرائق سلوكية، ومعارف فكرية، وتجارب عملية.

حقية النبوة وحقيقتها:

والنبوة حالة شخصية من التربية الإلهية بالوحي الخاص إلى من يصطفيه الله تعالى لمقامها من عباده، فهي تقصد إلى تربية بعض الأفراد وتهذيبهم تهذيبًا يرفعهم فوق مستوى أفراد بيئاتهم وأحوال مجتمعاتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، ليكونوا بسلوكهم أسوة لمن تؤهله فطرته للتأسي بهم في حياتهم وموارد سلوكهم ومصادره.

فهي صورة من صور الوحي الإلهي لا تعتمد تكليف التبليغ الذي إذا وقع فلا يقصد به الدعوة الواجبة وجوب التكاليف العقيدية والتعبدية، والتزام أصول الفضائل عملًا إيجابيًا واجتناب الرذائل كفًا سلبيًا، فالتبليغ إذا لم يكن شرطًا في تحقيق وحي النبوة فإن عدمه ليس شرطًا في وجود النبوة.

فالنبي -مطلق النبي- إنسان يختصه الله بتربيته وتهذيبه والإيحاء إليه بالتزام شرع إلهي موجود، أو منشأ إنشاء ليعمل به في نفسه، مرتفعًا بها عقيدة وسلوكًا إلى آفاق تضعه فوق مستوى الفضائل الإنسانية في قومه ومجتمعه.

بيد أنه لا يمكن أن يتصور أن يوجد نبي في بيئة ومجتمع بشري منحرف في عقائده وتعبداته وسلوكه الاجتماعي، وتشيع في جنباته المظالم والفواحش والأسواء وهو يرى ويسمع وهو قادر على أن يأمر بالخير وينهى عن الشر ثم يسعه السكوت والاعتزال، فهذا بعيد عن التصور، ولا مناص لمن يعلم الخير والشر بتعليم الله تعالى من أن يدعو إلى فعل الخير وينفر من مقارفة الشر ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولو كان غير مكلف تكليفًا تبليغيًا خاصًا بهذه الدعوة.

فالنبوة ليست مرتبة سلبية من مراتب السلوك في الحياة، ولكنها مرتبة عملية إيجابية خاصة ليس لها أثر تكليفي بوجوب التبليغ، وإنما أثرها المباشر في التهذيب الخاص والتربية الشخصية، وقد يتعدى أثرها صاحبها بالتأسي به والاقتداء بأعماله وسلوكه في عموم دعوته إلى الخير والتنفير من الشر دون تكليف بالتبليغ.

كلام ابن تيمية في النبوة:

يقول الإمام ابن تيمية في كتاب (النبوات): فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأه الله -أي دون تكليف تبليغ-

فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ (الحج: ٥٢)

وقوله: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾

فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله... فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلون، ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم؛ لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول.

فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فقوله:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾

دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق كالعالم؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

حقيقة الرسالة ومعناها والفرق بينها وبين النبوة:

أما الرسالة فهي إعداد وتكليف، إعداد لمن يصطفيه الله تعالى لهذه المكانة السامية من مراتب السمو البشري، بتعهده وتربيته تربية سلوكية يكون بها أكمل مجتمعه في خصائصه النفسية وفضائله الإنسانية، وخلائقه البشرية، وهذا الإعداد هو معنى قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾

(الأنعام: ١٢٤)

وتكليف يلزمه العمل عقدًا وحركة بجميع ما يوحى إليه، وتبليغ ما يؤمر بتبليغه من حقائق رسالته إلى من كلف تبليغهم.

وتبليغ الرسالة ليس مجرد عرض لهدايتها وحقائق وحيها، وإنما هو عرض يستلزم بيانًا يبلغ من العقول مكامن اليقين والإقناع الذي لا تبقى للشبهة معه مكان، ومن هنا كان تبليغ الرسالة أول مراتب الجهاد، فهو جهاد بالحجة، وهو جدل تتوالى دلائله وتتَّابعُ براهينه في جانبي الأمر والنهي، والطلب والترك، والإيجاب والسلب، سلبًا في النهي عن الانحرافات العقيدية والتعبدية، والسلوك الاجتماعي في الأخلاق والمعاشرة والمعاملات بما يجب أن يفضي إلى القضاء على الانحرافات، ويقوض أسسها، ويهدم دعائمها المعششة في أوهام المدارك، ويمسح آثارها من لوح الحياة وواقع الوجود.

وإيجابًا في الأمر وطلب ما يجب أن يملأ فراغ العقول والقلوب والأرواح من عقيدة مستقيمة النهج يسيغها العقل ويثبتها، وينصرها الحس ويهضمها، ويرحب بها الوجدان ويتقبلها، ويهش لها الضمير الإنساني ويتشربها، وتعبدات ترتاح لها الفطر السليمة النقية، وأخلاق يرتضيها الشعور الإنساني المهذب، ومعاملات يسودها العدل ومودة الإخاء الإنساني، ومساواة في الحقوق والواجبات الإنسانية، وتراحم مواس، مع التذرع بالصبر المكافح، وعزيمة احتمال الأذى وفادح البلاء.

وقد يفضي الأمر بالمرسلين إلى جهاد المدافعة لأعداء الله وأعداء رسالاته المتربصين لتعويق سير دعوتهم إلى أهدافها من العقول والقلوب والأرواح.

دليل تقدم نبوة نبينا محمد ﷺ على رسالته:

وجهاد المنحرفين المعوقين لسير دعوات الرسل شرعة جميع الرسالات الإلهية، لكنها قد تختلف في أسلوب هذا الجهاد، وتتفاوت في تقدير أسبابه وعوامله وطبيعته وآثاره ونتائجه التي يقف عندها.

وتقدم نبوة نبينا محمد ﷺ على رسالته مذهب كثير من أئمة العلم في الإسلام، وفي حديث عائشة رضي الله عنها الذي يدور عليه (بدء الوحي) ما يدل صراحة على هذا التقدم، فقد

جاء فيه قولها رضي الله عنها : «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ويتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: (اقرأ)».

وموضع الدلالة من هذا الحديث على سبق النبوة وتقديمها زمنا على الرسالة واضح في قول عائشة رضي الله عنها : «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة -أو الصالحة-» وهذه الرؤيا هي أول مراتب وحي النبوة التي دخل بها محمد ﷺ ساحة الامتياز البشري والإعداد الروحاني الخاص؛ توطئة وتمهيدًا لمجيء الرسالة وتحمل أثقالها، ويؤكد هذه الدلالة قولها رضي الله عنها : «ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء».

وهذا الخلاء الذي حبب إليه ﷺ بعد أن نبئ كان لونًا من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلهية والتأديب الرباني في عموم أحواله، وهذا الإعداد الخاص أعظم درجة في آفاق الترقي الروحاني مما روي عنه ﷺ أنه كان يخلو قبل نبوته للتعبد بالتفكر -فيما رجحناه- في بديع ملكوت الله، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه ووحدة وجوده،

وعظيم اقتداره، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه، وبما بقي نقيًا من آثار شريعة جديه إبراهيم وإسماعيل، وأخص ذلك وأعرفه ما كان يداوم عليه ﷺ من تعظيم الكعبة المشرفة، بالطواف حولها إذا عاد من خلوته كما جاء في حديث عبيد بن عمير: «كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرًا، وكان ذلك مما تَحَنَّثُ به قريش في الجاهلية -والتحنث التبرر- وكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به انصرافه قبل أن يدخل بيته الكعبة فيطوف سبعًا أو ما شاء الله، ثم يرجع إلى بيته».

لأن هذا الخلاء الذي كان قبل التحنث الخاص قبيل مجيء الملك كان أثرًا من آثار طهارة الفطرة التي فطر عليها النبي ﷺ وسلامتها ونقائها من تأثرات البيئة، أما خلاؤه في غار حراء الذي حبب إليه بإلهام إلهي بعد أن نبئ فهو وسيلة ربانية اختارها الله تعالى لعبده محمد ﷺ طريقة من طرائق التعهد التربوي لإعداده ﷺ لتحمل ما ينتظره من أعباء الرسالة، وأثقال تنزلها وفدائح تبليغها، ولهذا جاء التعبير عنه في الحديث بـ(حُبِّب إليه)؛ للإشعار بأنه أمر روحاني، وجه إليه ﷺ توجيهًا إلهيًا خاصًا، وإلهامًا ألهمه ليكون تمهيدًا للقاء الملك، وليس امتدادًا للخلاء الفطري، الذي كان يقصد به ﷺ اعتزال قومه، وتنائيه عن جاهليتهم، وكأن هذا الاعتزال

تعبير منه ﷺ عن إنكاره لما كان ينغمس فيه مجتمع الجاهلية من ضلالات الشرك والوثنية، وتباعد عن أسوأ اعتقاداتهم وأباطيلهم، كما كان يفعل بعض الحنفاء فيما يرويه التاريخ.

حكمة اختصاص غار حراء لخلوة النبي ﷺ:

وقد ذكر القسطلاني في المواهب اللدنية ناقلًا عن ابن أبي جمرة حكمة اختصاص تحبيب الله تعالى إلى رسوله ﷺ الخلاء في غار حراء دون غيره من الأماكن التي تصلح للخلوة، وهي كثيرة في جبال مكة ووديانها فقال مع بعض التصرف للبيان:

أولًا: إن غار حراء منزوٍ في انعطاف وميل عن طرق مرور الناس عليه، وهذا الوضع يزيد في تمكن المختلي فيه من البعد عن الناس وضوضاء الحياة، ويساعده على عدم مخالطتهم والتفرغ للتعبد، وهي أمور كان يقصد إليها النبي ﷺ في خلائه وتعبده بالتفكر في مصنوعات الله وبدائع ملكوته.

ولا شك أن البعد عن الناس وحركاتهم في تقلباتهم لطلب مصالحهم ومعاشهم أجمع للفكر وخواطر القلب، وأبلغ في عمق التفكر والتأمل، وأقرب إلى التهدِّي.

ثانيًا: إن هذا الغار يقع في موقع يبصر منه المعتكف فيه بيت الله المحرم -الكعبة المشرفة- والنظر إلى البيت الحرام عبادة، تذكِّر بأعظم متعبَّد بقي على تقلبات الحياة وصروفها،

وقد طاوَل الزمن وغالَبه، فاستطال عليه وغلبه، لأنه الأثر الثابت تاريخيًا من تراث أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وابنه إسماعيل، وهما جدًّا محمد الأعليان، إليهما يرتفع نسبه الشريف المحقق.

وقد بقي التعبد بتعظيم هذا البيت، والطواف حوله سنَّة متبعة من سنن الرسالات الإلهية التي أحيت رسالةُ محمد ﷺ معالمَها الأصيلة، فجعلت من الطواف حول هذا البيت وتعظيمه أحد أركانها وشرعة في منهاج تعبداتها.

وبالتأمل فيما ذكرنا يتبين أن الخلاء في غار حراء يجمع ثلاث عبادات كانت كلها محققة ومقصودة للنبي ﷺ في خلائه به.

أولاها: الخلوة التامة التي لا يعكر صفوها صخب الحركة وضوضاؤها، يقول الزرقاني -وهو يفسر الخلوة ويوضح ثمارها ونتائجها-: هي أن يخلو عن غيره، بل وعن نفسه بربه، وعند ذلك يكون -أي المختلي- خليقًا بأن يكون قالبه ممرًا للواردات من علوم الغيب، وأن يكون قلبه مقرًا لها، وناهيك بالخلوة من عبادة!! لأنها تفرغ القلب من الشواغل، وتقطع المختلي عن الخلائق، وتريحه من شواغل الدنيا، وتفرغ المختلي لله تعالى، فيجد الوحي فيه متمكنًا.

ثانيتها: التحنث، وفسر في حديث عائشة بالتعبد، وتقييدُه في الحديث بالليالي ذوات العدد ليس قيدًا في حقيقته، وإنما

هو قيد لواقعه في تحنث النبي ﷺ وفسر في حديث عبيد بن عمير بالتبرر، ومعناه فعل البر والطاعة، وهو بمعنى التعبد.

ثالثتهما: النظر إلى بيت الله المحرم، وهذا النظر عبادة، لأنه مذكر برب البيت، ومذكر بأعظم عمل مبارك قام به خليل الله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام في رفع قواعد هذا البيت المعظم، استجابة لأمر الله تعالى.

وفيه سر آخر يكمن في اختصاص هذا البيت بنسبته الخاصة إلى رب العزة عز شأنه وإجذاب القلوب إليه، وتعلق الأرواح به. وقول القسطلاني في شرحه لصحيح البخاري: إنما كان يخلو بغار حراء دون غيره لأن جده عبدالمطلب كان أول من كان يخلو فيه من قريش -وكانوا يعظمونه لجلالته وسنه، فتبعه على ذلك، فكان يخلو بمكان جده- كلام ما كان ينبغي أن يذكر، ولا يستأهل أن يعرج عليه في سيرة أكرم الأنبياء محمد ﷺ لأن الله تعالى عصمه منذ تولاه برعايته وآواه إلى كنفه، عن متابعة جد أو أب أو عم ممن عاشوا وماتوا قبل بعثته.

وتعظيم قريش عبد المطلب جده ﷺ لمكانته بينهم وسنه فيهم إنما كان تعظيمًا قوميًا جاهليًا، لا يعبأ الله به، فلا يمكن أن يترك الله نبيه ﷺ وهو الحفي به، المتولي بلطفه ورعايته تأديبه وتسديده في حياته كلها من مهده، وليدًا وطفلًا، وناشئًا، وشابًا، ورجلًا كهلًا، ونبيًا ورسولًا، ليتابع جده

ويتأسى به في تعبده ومعرفة جلال خالقه، فيختار مكان تعبد هذا الجد -إذا صح أن هذا الجد كان يتعبد في هذا المكان- ليتحنث فيه، لا سيما في التحنث الذي حبب إليه بعد الرؤيا الصادقة التي جاءته بها النبوة.

وإذا كان عبد المطلب قد شهر بتعظيم قومه له لمكارم قومية وأخلاق عربية كان يتصف بها بينهم، فلم يعرف أنه كان من المتحنفين المشهورين في الجاهلية بمخالفة قومهم، ولو أنه عرف بذلك فلم يكن ليتخذه النبي ﷺ قدوة له ليتابعه في اتخاذ مكان تحنثه الجاهلي متعبدًا له، يحببه الله إليه بعد أن نبئ بوحي الرؤيا الصادقة إعدادًا لملاقاة الملك في وحي الرسالة.

نبوة محمد ﷺ كانت أول مراتب اصطفائه

كانت نبوة نبينا محمد ﷺ أول مراتب الاصطفاء المتسامي فوق مستوى آفاق البشرية المطلقة، تمهيدًا لتلقي وحي الرسالة.

والنبوة مرتبة إعداد وتربية، وتوجيه وإرشاد، ويتنزل فيها الوحي بمراتبه الخاصة بها منامًا أو يقظة، معلمًا هاديًا، ليس فيه تشريع تكليف، ولا تكليف إبلاغ تشريع، وإنما هي خطوات من الإعداد التربويّ لمن يصطفيه الله تعالى لمقامها متتابعة، ومعالم من التعليم والتأديب متتالية، وخطوات من إشراق التمهيد متوالية، أساسها الأصيل وهدفها الأخير في توطئتها لدعوة الرسالة بناء شخصية الرسول بناء جديدًا، تطوع فيه الطبيعة البشرية بكل ما أودع الله فيها من قوى مادية، خاصة وعامة، ظاهرة وباطنة، لتنفعل أمام القوى الروحانية العليا التي تفاض على الرسول في ميلاد رسالته، والتي يقصد الإعداد التربوي الخاص إلى إيجادها في شخصية الرسول في أقوى صورة علوية، يجانس الملأ الأعلى في قوة رحمانيته، ليتسنى له بهذا التجانس أن يتلقى كلمة الله ورسالته من أمين وحيه، وهو على درجة من قوة الروحانية المزاوجة للطبيعة البشرية، إبقاء على التجانس الملائم للتبليغ.

وهذه المزاوجة بين القوى الروحانية والطبيعة البشرية هي

التي تمد الرسول بأعظم درجات الاحتمال لأعباء الرسالة، وأثقال تنزلها، وهي التي تمنحه قوة الصبر والمصابرة على فدائح التبليغ، وهذا هو فيصل الفرقان فيما بين النبوة والرسالة.

ومن هنا يظهر السر في ثقل وفداحة وحي الرسالة، وشدة وطأته على بشرية النبي ﷺ في جميع مراتبه، وفي يسر وحي النبوة، في سائر مراتبه.

ولذلك كان بدء وحي الرسالة مستهل ميلادها، ومطلع شمسها -في مفاجأة الغار أول لقاء يقظي لأمين الوحي جبريل عليه السلام- أشد ما لقي النبي ﷺ من عنف وفداحة في مراتب الوحي.

ويتجلى ذلك في فجأة اللقاء، وبغتة الخطاب، وطلب القراءة، وهي أول كلمة يسمعها محمد ﷺ منذ ميلاده البشري في موضوعها، كلمة تلقى إليه في هذا اللقاء المفاجئ (اقرأ) دون توطئة أو تمهيد لهذا اللقاء وما جرى فيه، وأنى لمحمد ﷺ أن يقرأ، وهو الأمي الذي نهد في قوم أميين، من أمة أمية، لا تقرأ ولا تكتب، وهو الذي لم يعرف قط قراءة، ولا سمعت أذنه قط أن قيل له قبل هذه المفاجأة (اقرأ).

ويأخذه الملك -بعد أن أبان ﷺ عن طبيعته الأمية بقوله: «ما أنا بقارئ»- ويضمه إليه ضمًا شديدًا، يعصره عصرًا، ويغطه غطًا ضغط بشريته حتى بلغ منه جهد هذه البشرية

وذروة طاقتها، حتى ظن رسول الله ﷺ أن نفسه تقبض، كما جاء في حديث سؤال عبدالله بن عمرو -عند الإمام أحمد- رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل[٢٢]، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليَّ إلا ظننت أن نفسي تقبض».

ثم يرسله الملك من قبضته، ويعيد عليه طلب القراءة، والغط الضاغط العاصر المجهد، ويحاول رسول الله ﷺ أن يفتدي نفسه منه، ومما يلاقي من فداحة وشدة، كما جاء في حديث عبيد بن عمير إذ قال النبي ﷺ وهو يرد على طلب القراءة منه في المرة الثانية: «ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع». والملك لا يتركه حتى يستفرغ بشريته من علائقها المادية، ويفرغ في قلبه وروحه إشراقًا من الروحانية العالية، يُعِدُّه به لتلقي وحي الرسالة وتنزل آيات القرآن الكريم، وهو أجلّ مراتب الوحي وأفدحها ثقلًا على طبيعة رسول الله ﷺ البشرية، كما أخبر بذلك القرآن الكريم في قول الله عز شأنه:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل: ٥)

وثقل القرآن ليس أمرًا حسيًا توحي به ظلال العرف التي ظللت بها الكلمة، وإنما هو أمر معنوي، يرجع إلى سر إلهي

(٢٢) الصلاصل جمع صلصلة، والصلصة جرس الصوت. (المجلة)

وأمر روحاني لا يعلـم حقيقته إلا الله تعالى، وإنما الذي يظهر ويحس آثاره فيما كان يجده رسول الله ﷺ من ضروب الشدة، وقد أخبر الله تعالى به نبيه ﷺ تأنيسًا له من وحشة ما يجده من الشدة التي كانت تعتريه حين تلقى إليه آيات القرآن الكريم.

وأما الآثار الحسـية التي كانت ترى على بشـرية النبي ﷺ في وجهه الشـريف وغيره مـن أعضاء بدنه فـي بعض مراتب الوحي، لا سـيما وحي آيات الوعيد والإنذار فمردها إلى حال حامـل الوحي وأمينه ومؤدي رسـالته إلى رسـول الله ﷺ وإلى الصورة التي كان يظهـر فيها حين يلقي إليه الوحي، كما جاء في حديث سـؤال الحارث بن هشـام عند البخاري: يا رسـول الله، كيـف يأتيـك الوحـي؟ فقـال ﷺ: «أحيانًـا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ» وكما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا».

الأدلة على أن نبوة محمد سابقة على إرساله:

الدليـل الأول: حديـث إسـرافيل عليه السـلام في مرسـل الشعب-وقد صححه الأئمة- يفيد صراحة أن نبوة نبينا محمد ﷺ متقدمة على رسـالته، وقد اسـتغرقت في تقدمها بمراتب وحيهـا مدة ثلاث سـنين، وهي المـدة التي قرن فيهـا بالنبي ﷺ إسـرافيل، منذ نبئ وهو ابن أربعين سـنة، فكان إسرافيل

عليه السلام يتراءى له، ويأتيه بالكلمة من الوحي والشيء من الأعمال والآداب، ثم استهلت رسالته بأول لقاء يقظي لقيه فيه جبريل عليه السلام في مفاجأة الغار، التي بدأ بها تنزل القرآن الحكيم بنزول أوائل سورة (اقرأ).

يدل على تقدم نبوته ﷺ وانفرادها بمراتب وحيها قبل رسالته عدة أدلة:

نذكر منها ما تلوح دلالته ظاهرة، وقد سقنا أول هذه الأدلة، وهو مرسل الشعبي.

الدليل الثاني: ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث -وهو العمدة في قصة بدء الوحي- أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة -أو الصالحة- وهذا بيان لبدء النبوة، وقد بين حديث إسرافيل في مرسل الشعبي مدة النبوة التي سبقت بها الرسالة، كما بين أسلوب التربية الإلهية والتعهد الرباني، والإعداد الروحاني، والتعليم الملائكي على يد إسرافيل عليه السلام في مدة النبوة، تمهيدًا وتوطئة لوحي الرسالة الذي بدأ بنزول مطالع سورة (اقرأ).

فقد جاء في هذا الحديث: «أنزلت النبوة عليه -محمد ﷺ- وهو ابن أربعين سنة»، وعيَّن حديث عائشة رضي الله عنها بدء وحي النبوة بالرؤيا الصادقة -أو الصالحة- ثم قال

حديث الشعبي: «فقرن به إسرافيل»، وهذا التعبير المبدوء بفاء الترتيب والتعقيب واضح في إفادته أن نبوته ﷺ منذ بدأت بالرؤيا الصادقة في النوم قرن به فيها إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين، يأتيه بالكلمة من الوحي، والشيء من العمل والآداب، ولم ينزل عليه قرآن على لسانه.

وفي حديث عائشة المتفق عليه بيان للغاية التي انتهى إليها انفراد النبوة بمراتب وحيها الخاصة، ومن هذه الغاية بدأت الرسالة بوحي اليقظة ونزول القرآن الحكيم، إذ قالت رضي الله عنها -بعد أن بينت معنى الرؤيا الصادقة التي بدأ بها وحي النبوة، بتفسيرها بوضوح تأويلها في واقع الحياة والأحداث-: «حتى فجأه الحق، فجاءه الملك» -أي جبريل- كما جاء مفسرًا في حديث الشعبي إذ يقول: «فلما مضت ثلاث سنين قرن به جبريل، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة».

وهذا ظاهر جدًا في بيان الغاية التي انتهى عندها انفراد النبوة بمراتب وحيها الخاصة، وانتهى بها قرن إسرافيل به ﷺ وهو أيضًا ظاهر جدًا في بيان بدء الرسالة، وأنه كان يقرن جبريل به، وبدء نزول القرآن على لسانه إلى تمام كمال رسالته ﷺ.

ومن ثم توحَّد وحي النبوة ووحي الرسالة، فدخلت مراتب وحي النبوة في مراتب وحي الرسالة، وبهذا التوحد بين مراتب

وحي النبوة ومراتب وحي الرسالة، يقظة أو منامًا، صار سيد الخلق وإمام الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ نبيًا رسولًا، وبه ختم الله تعالى النبيين والمرسلين.

الدليل الثالث: ما جاء في حديث عبد الله بن أبي بكر بن حزم بعد أن ذكر بدء أمر رسول الله ﷺ بالرؤيا الصادقة، وأن جبريل استعلن به، بعد تلك الرؤيا، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه تعظيمًا له وتشريفًا لقدره، وبشره برسالة ربه، حتى اطمأن رسول الله ﷺ وأقرأه أوائل سورة (اقرأ)، فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله.

فاستعلان جبريل، وظهوره يقظة للنبي ﷺ وتعظيم مجلسه، وإقراؤه ما نزل إليه من القرآن هو عين ما جاء في حديث عائشة عند البخاري ومسلم، في مفاجأة الغار بتصرف في الأسلوب، وهذا لا تكاد تخلو منه روايات الحوادث والوقائع التي غلب عليها الرواية بالمعنى، فيؤدي كل راو بأسلوبه وطريقته ما استقر عنده من المعنى الذي لا يختلف في جوهر الحديث عن رواية غيره.

بل إن في حديث ابن أبي بكر بن حزم تصريحًا لا يحتمل التأويل، ولا يقبل التظنن والشك، وذلك قوله: وبشره برسالة ربه حتى اطمأن، ولا يمكن أن يبشره برسالة ربه قبل أن يرسل، ويؤكد ذلك قوله في الحديث: فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه،

واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله.

أفكان رسول الله ﷺ قد قبل شيئًا لا وجود له؟ وإلى أي شيء اطمأن ﷺ إذا لم يكن هذا الشيء هو الرسالة التي بشره بها أمين الوحي جبريل، واتبعه فيما جاء به من عند الله؟

ومحور الدلالة من هذا الحديث أن استعلان جبريل بالنبي ﷺ وتبشيره بالرسالة التي قبلها النبي ﷺ واطمأن بها، وإقراءه أوائل سورة (اقرأ) هو عين ما جاء في حديث مفاجأة الغار، وهذا إنما كان بعد أن ثبتت النبوة منفردة بوحي الرؤيا الصادقة التي افتتح بها وحيها، سابقة على مجيء جبريل بالرسالة في ظهوره واستعلانه وتبشيره بالرسالة وإقرائه ما نزل إليه من القرآن كما جاء في الحديثين، حديث عائشة في مفاجأة الغار، وحديث ابن حزم في الاستعلان والتبشير والإقراء.

الدليل الرابع: حديث ابن عباس، قال ابن سيد الناس في (عيون الأثر): وروينا من طريق الدولابي عن محمد بن عائذ، حدثنا محمد بن شعيب، عن عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه عطاء بن أبي مسلم، عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعث الله عز وجل محمدًا ﷺ على رأس خمس سنين من بنيان الكعبة، وكان أول شيء أراه إياه من النبوة رؤيا في النوم.

فذكر نحو ما جاء في حديث ابن أبي بكر بن حزم، وفي آخره: فلما قضى إليه الذي أمر به انصرف رسول الله ﷺ

منقلبًا إلى أهله، لا يأتي على حجر، ولا شجر، إلا سلم عليه، سلام عليك يا رسول الله، فرجع إلى بيته وهو موقن أنه قد فاز فوزًا عظيمًا.

ووجه الدلالة من هذا الحديث على تقدم النبوة وانفرادها بمراتب وحيها الخاصة قبل مجيء الرسالة، أنه صريح في أن أول شيء بدأ الله تعالى به رسوله ﷺ هو ما أراه إياه من النبوة، رؤيا في النوم، وهذا موافق تمام الموافقة لحديث ابن حزم في أن الرؤيا المنامية، وهي أولى مراتب وحي النبوة كانت سابقة على ظهور جبريل واستعلانه للنبي ﷺ وتبشيره إياه برسالة ربه، وإقرائه أول ما نزل من آيات القرآن.

بل إن عبارة حديث ابن عباس أصرح في بيان أن الرؤيا التي أريها النبي ﷺ من النبوة، كما هو ظاهر قوله: أول ما أراه إياه من النبوة رؤيا في النوم، وهو موافق لحديث عائشة المتفق عليه في قولها: إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة.. حتى فجأه الحق وجاءه الملك، وقال له: (اقرأ) فقولها رضي الله عنها (من الوحي) في مقابل قوله (من النبوة).

الدليل الخامس: ما جاء في حديث عبيد بن عمير من قوله ﷺ «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل

صـاف قدميـه في أفق السـماء، يقول: يا محمد، أنت رسـول الله، وأنا جبريل».

وهـذا بين في دلالته على تقدم النبوة بوحي الرؤيا في النوم على الرسـالة التي بدأت بوحي اليقظة ونزول القرآن الكريم، كما يسـتفاد من قوله: «فخرجت حتى إذا كنت في وسـط من الجبـل» فإن معنى هـذا الخروج المتبادر هـو الخروج من غار حـراء منصرفًـا إلى أهلـه، وذلك أن النبـي ﷺ كان في خلائه ومتعبـده في حـراء، ورأى في منامه ما رأى، ثـم هب من نومه لينصرف إلى أهله، فلما توسـط الجبل سمع النداء: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

وقد بينا فيما سبق أن قصة بدء الوحي واحدة في موضوعها وأحداثهـا، لكـن الروايات اختلفت في سـوقها، فزاد بعضها وفصَّـل، ونقص بعضها وأوجز، وكلهـا يكمل بعضها بعضًا، وهذا الاختلاف في التفصيل والإجمال، والإسـهاب والإيجاز لا يخرجها عن وحدة موضوعها.

ذكرنـا خمسـة أدلة لبيان تقـدم النبوة زمنًا على الرسـالة، وهـذه الأدلة منتزعـة من أحاديـثَ نَصَّ الأئمة علـى صحتها، ولكنهـا رويـت بأسـاليب مختلفة فـي تفاصيلهـا، متفقة في حقائقها وجملتها بيد أن هذا الاختلاف في التفصيل لا يذهب بوحدة الموضوع وخلاصته -كما قدمنا-.

والروايـات كلهـا تفيـد صراحة أن النبـي ﷺ أنزلت عليه

الرسالة بعد أن نبئ بثلاث سنين -كما في مرسل الشعبي- أو أقل من ذلك، كما في غيره من الأحاديث ونصوص الأئمة.

ومرسل الشعبي صريح في أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ منذ بدأت نبوته بالرؤيا الصادقة واستمر قرنه به ثلاث سنين، ولم ينزل على النبي ﷺ قرآن على لسان إسرافيل في مدة قرنه به، وإنما كان يلقي إليه الكلمة من الوحي، ويعلمه ما يؤمر به من الأدب والعمل.

ولما مضت سنوات قرن إسرافيل به بدأت رسالته وقرن به جبريل، وأنزل عليه القرآن نجومًا آيات وسورًا على لسانه مدة رسالته حتى رفع إلى الرفيق الأعلى.

وحديث عائشة المتفق عليه، وحديث عبيد بن عمير، وحديث ابن أبي بكر بن حزم، وحديث ابن عباس كلها صريحة ومتوافقة في أن أول ما أنزل وأقرأه إياه جبريل عليه السلام في غار حراء خمس آيات من أول سورة

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾

(العلق: ١)

ثم فتر الوحي فترة لم يتفق على تحديد مدتها، بل وقع فيها اختلاف متباعد الأطراف جدا، وقد بسطنا القول في ذلك عند مناسبته وموضعه، ورجحنا أن هذه الفترة لا تعدو أن تكون أيامًا معدودة، وذكرنا هناك أن العلامة مغلطاي وهو من

أئمة العلم وحفاظ السيرة النبوية ووقائعها وأحداثها، رجح في كتاب (الزهر) أنها ثلاثة أيام فقط، وقال: ولعل هذا هو الأشبه بحاله عند ربه، وهذا التحديد مذكور مروي عن مقاتل في تفسيره، كما ذكره الزرقاني في سوقه عبارة مغلطاي التي نقلها للرد على السهيلي في زعمه تصحيح أن مدة فترة الوحي كانت سنتين ونصفًا، وهو رد بالأولى على تصريح مؤلف المواهب اللدنية العلامة القسطلاني في قوله: وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين.

وهذا الاختلاف الواسع العريض في تباعد أطرافه، وترجيح مغلطاي أنها ثلاثة أيام فقط، يؤكد لنا أبطولة بلاغ الحزن اليائس في هذه الفترة، وما احتف بها من تكرار الغدو للتردي من شواهق الجبال، وهي أسطورة باطلة، أشبعنا القول في بيان بطلانها بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة.

والحكم على مرسل الشعبي بالضعف- مع تصحيح الأئمة إسناده إليه، وهو إمام أئمة هذا الشأن- لمجرد الإرسال مجازفة وتسرع في الحكم على النصوص، لا يستند إلى دليل، وإنكار الواقدي لهذا الحديث ردَّه العلامة الحافظ ابن حجر بأن الشعبي مثبت، والواقدي ناف، والمثبت مقدم عندهم على النافي إن لم يصحبه دليل نفيه.

وقد عرفنا أن إنكار الواقدي إنما يعتمد على مجرد أن أهل العلم ببلده لا يعرفون أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ وأن علماء

بلـده، وأهل السـيرة منهم يقولـون لم يقـرن بالنبي ﷺ غير جبريل من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قبض ﷺ.

وقد رددنا كلام الواقـدي- بالإضافة إلى رد العلامة الحافظ ابـن حجر- بأن عـدم معرفة أهل العلم ببلده أن إسـرافيل قرن بالنبـي ﷺ لا يدل على عـدم وقوعه، لأن عدم المعرفة لا يدل على عدم الوجود، إذ لا تلازم بينهما، وأهل العلم ببلد الواقدي طائفه من علماء الإسـلام وأئمته لـم تنته إليهم جميع ضروب العلم ومسـائله وقضاياه، ولم تنته إليهم معرفة جميع الوقائع الإسلامية، فكم من علم بكثير من القضايا والحقائق عند بعض العلمـاء لا يوجد عند غيرهم، وبلـد الواقدي -على كثرة أهل العلم فيـه- لم يخرج عن كونه بلدًا من بلاد العالم الإسـلامي المليئـة بالفضل والفضلاء من أئمة الإسـلام وعلمائه، نتيجة تفـرق أهل العلم فيهـا، وقد أخذ أهل كل بلـد منهم ما انتهى إليهم من العلم والمعرفة.

وقـرن جبريل بالنبـي ﷺ منذ نزل عليـه الوحي -كما في عبارة الواقدي- قد يعني وحي الرسـالة الذي بدأ بنزول القرآن الكريم في مفاجأة الغار، وهذا مسـلم، واحتماله قائم، ولكنه لا ينفي قرن إسـرافيل به ﷺ في مدة نبوته، وهي متقدمة على رسالته التي استهلت بالإقراء في مفاجأة الغار.

ولا وجـه لـرد الحافـظ جلال الدين السـيوطي على شـيخ شـيوخه العلامة الحافظ ابن حجر في ترجيحه مرسل الشعبي

على إنكار الواقدي قرن إسرافيل بالنبي ﷺ بأنه ورد ما يوهي أثر الشعبي، وهو ما أخرجه مسلم، والنسائي، والحاكم، عن ابن عباس، قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وعنده جبريل إذ سمع نقيضًا من السماء فوقه، فرفع جبريل طرفه إلى السماء، فقال: يا محمد، هذا ملك قد نزل، لم ينزل إلى الأرض قط، فجاء -أي الملك- إلى النبي ﷺ فسلم عليه، فقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة.

وقد ساق ابن كثير في مقدمة تفسيره حديث مسلم الذي اعتمد عليه السيوطي في وهي مرسل الشعبي فقال: روى مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه من حديث أبي الأحوص، سلام بن سليم، عن عمار بن زريق، عن عبد الله بن عبس بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضًا فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب فتح من السماء، ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبيٌ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفًا منها إلا أوتيته. قال ابن كثير: هذا لفظ النسائي.

وادعاء الحافظ السيوطي وَهْي مرسل الشعبي بهذا الحديث ادعاء عجيب، وزعم جد غريب، وإلا فأين موضع

وَهْي أثر الشعبي -الذي صحح الأئمة إسناده إليه، والشعبي إمام مجمع على توثيقه، وعلو كعبه في صدق الرواية- من هذا الحديث؟ وهل يجوز أن يُوَهَّى حديث ثبتت صحة إسناده إلى راويه المتفق على توثيقه بمجرد قول جماعة من العلماء -كما يقول الزرقاني في شرح المواهب- إن هذا الملك الذي نزل بهذه البشرى إلى النبي ﷺ ولم ينزل قبل ذلك إلى الأرض هو إسرافيل، دون أن يرد لإسرافيل ذكر أي ذكر في الحديث؟ فمن أين لجماعة من العلماء الذين اعتمد السيوطي على قولهم أن هذا الملك هو إسرافيل؟ وهذا أمر لا سبيل إلى الاجتهاد فيه بالرأي، لأنه من الغيب الذي لا يعلم إلا بإعلام الله تعالى لنبيه ﷺ ولم يثبت من طريق صحيح أن النبي ﷺ أخبر بذلك، وهو ﷺ الطريق الوحيد لإثبات هذا الإخبار.

ولعل الشبهة جاءت إلى الحافظ السيوطي، وإلى جماعة العلماء الذين اعتمد على قولهم، من حديث ابن عمر عند الطبراني، الذي ساقه الزرقاني نقلًا عن السيوطي، فقال: عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد هبط عليَّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي- وهو إسرافيل فقال: أنا رسول ربي إليك، أمرني أن أخبرك إن شئت نبيًا عبدًا، وإن شئت نبيا ملكا فنظرت إلى جبريل، فأومأ إلى أن تواضع، فلو أني قلت: نبيًا ملكا لسارت معي الجبال ذهبًا».

قال السيوطي: وهاتان القضيتان بعد ابتداء الوحي بسنين كما يعرف من سائر طرق الأحاديث، وهما ظاهرتان في أن إسرافيل لم ينزل إليه قبل ذلك، فكيف يصح قول الشعبي: أنه أتاه في ابتداء الوحي؟

وهذا أيضًا استنتاج غريب لأن حديث مسلم الذي رواه النسائي والحاكم قضية قائمة بذاتها في سندها وراويها من الصحابة، وهو ابن عباس، وفي معناها، ولم يذكر فيه شيء قط عن إسرافيل، باسمه أو نعته الخاص الذي يعينه من بين الملائكة المكرمين، وإذن فلا دلالة في هذا الحديث من قريب أو بعيد على ما يوهي أثر الشعبي الصحيح إسنادًا ورواية، فإقحامه للتدليل على ضعف أثر الشعبي مجازفة غريبة، بعيدة عن سداد العلم واستقامة البحث والاستدلال.

أما حديث ابن عمر الذي رواه الطبراني -إذا صح- فلا دلالة فيه مطلقًا على أن إسرافيل لم يقرن بالنبي ﷺ قبل قرن جبريل به منذ بدأ وحي الرسالة ونزول القرآن، وبالتالي لا دلالة فيه على أن إسرافيل لم يسبق له نزول على النبي ﷺ، وما جاء في الحديث منسوبًا للنبي ﷺ من جملة (وهو إسرافيل) يحتمل أنه مدرج، وليس من كلام النبي ﷺ.

ولو سلمنا رفع هذه الجملة إلى النبي ﷺ وأنها من كلامه، فليس في الحديث دلالة على مدَّعى الحافظ السيوطي وَهْي مرسل الشعبي، لأن النبي ﷺ قال -كما في عبارة الحديث

ونصه- : «لقد هبط عليَّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي» وهذا لا ينافي أن هذا الملك هبط على النبي ﷺ قبل نزوله هذا، وأنه قرن به مدة نبوته، لأن المنفي هبوط هذا الملك على نبي قبل نبينا ﷺ أما هبوطه عليه ﷺ فلم ينف، لأن العبارة النبوية صادقة بنفي هبوطه على نبي غيره من الأنبياء قبله، ونفي هبوطه على أحد بعده، وهذا على تسليم صحة نسبة القول (وهو إسرافيل) إلى النبي ﷺ.

وواضح أن حديث الطبراني مخالف كل المخالفة لحديث مسلم والنسائي والحاكم في سنده وراويه ومعناه، لأن حديث مسلم مروي عن ابن عباس، وحديث الطبراني مروي عن ابن عمر، واختلافهما في المعنى ظاهر، لأن حديث مسلم والنسائي والحاكم وارد في إبلاغ بشرى وتكرمة للنبي ﷺ بأن الله تعالى اختصه بفاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، ولأن حديث الطبرانيِ وارد في تخيير النبي ﷺ بين أن يكون نبيًا عبدًا، أو نبيًا ملكا.

فالقضيتان مختلفتان أشد الاختلاف، فلا جامع بينهما للدلالة على وَهْي مرسل الشعبي، وذكر إسرافيل لم يرد قط في حديث مسلم والنسائي والحاكم، وهو قطعًا أصح وأرفع من حديث الطبراني إذا ثبتت صحته.

وكون هاتين القضيتين بعد ابتداء الوحي بسنين لا يفيد

شـيئًا فـي الموضـوع، فذكـره لا محصل لـه، وقـول الحافظ السـيوطي: وهما ظاهرتان في أن إسـرافيل لم ينـزل إليه قبل ذلـك غير صحيح، وقوله، أيضًا: فكيف يصح قول الشـعبي: أنه- أي إسرافيل- أتاه في ابتداء الوحي؟ غير متجه ولا مسلم.

وقـد بينا وجه صحته، ووجه عدم تنافي الحديثين -حديث مسـلم، وحديـث الطبراني- لمـا يقتضيه أثر الشـعبي من أن إسـرافيل قرن بالنبي ﷺ في مدة نبوته منذ بدأ وحيها بالرؤيا الصادقـة في النوم، قبل أن يفجأه الحـق بمجيء جبريل له في غار حـراء وقرنه به منذ يومئذ، ونزول القرآن على لسـانه في عشرين سنة، مفتتحًا بأوائل

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾

(العلق: ١)

بدءُ نزُول القرآن العظيم

كانت فجأة الحق بمفاجأة أمين الوحي جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في خلائه متعبدًا لربه في غار حراء، يَسْبَح بفكره وإشراق روحه في آفاق التأمل في بدائع ملكوت الله ـ هي نقطة التحول في خط الاصطفاء من وحي النبوة إلى وحي الرسالة، إذ هي النقطة التي انتهى عندها خط انفراد النبوة بمراتب وحيها في مرحلة التميز الإنساني الذي اختص الله تعالى به عبده محمدًا ﷺ في طبيعته الروحانية على سائر الطبائع البشرية، تخلقًا، وفكرًا، وعملًا، وسلوكًا واستقامة نهجٍ في الحياة، بما حُبي به من وحي النبوة.

وكانت مفاجأة جبريل للنبي ﷺ بطلب القراءة ـ في أول لقاء يقظي بينهما إذ قال له ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ دون تمهيد لهذا الطلب الغريب على النبي ﷺ في حياته وطبيعته التي نهد وشب عليها ـ بدءًا لأول خطوات رسالته ﷺ، وإيذانًا بتحقيق أعظم معجزاته، وأي معجزة أجل وأعظم، وأبقى على الدهر خلودًا من أن يصير الأمي بالفطرة قارئًا عليمًا بغير تعلم دراسي، يثافن فيه المعلمين، ويثاقف العلماء؟(٢٣)

وقد نوَّه القرآن الحكيم بهذا الإعجاز الذي يدور على محور

---

(٢٣) الثفنات من البعير ما ولي من الأرض منه عند بروكه. ويستعار للملازمة. يقال ثافنت فلانا جالسته أو لازمته. (المجلة)

أميّـة محمد ﷺ، منكرًا على الذيـن لجُّوا في العناد الجحود، مجبهًـا بوخز التقريع للذين لم يتيحوا لعقولهم فرصة التفكر فـي حياة محمد ﷺ التي كانـت الأمية أظهر مظاهرها، وأبين خصائصها، وهم أعـرف الناس به، مدخلًا، ومخرجًا، ظاهرًا، وباطنًـا، وفيما صـار إليه بعد بعثه رسـولًا إلـى العالمين، من العلـم الربانـي الذي تلقاه مـن وحي الله تعالى إليه، في شـتى مناحي الحياة، عقيدة، وتعبدًا، وهداية، وتوجيهًا، وإرشـادًا، وتأسيسًـا لنظـم الاجتمـاع والعدالـة التي تقـوم عليها روابط المجتمع البشـري، أفرادًا وجماعات، مع اسـتقامة السـلوك معتمدًا على دعائم أفضل الفضائل الإنسـانية وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

(يونس: ١٥ ـ ١٦)

ويقول عز شأنه:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾

(الشورى: ٥٢، ٥٣)

وكان من الطبيعي أن يكون رد النبي ﷺ - وهو في غمرة المفاجأة على هذا الطلب الغريب المفاجئ بقوله: «ما أنا بقارئ» - إرهاصًا لتبيُّن مناط التحدي بمعجزة قراءته، وتقريرًا برهانيًا على صدقه في دعوته، وأساسًا وطيدًا لإيمانه برسالة نفسه واستظهارًا لمعالم التحدي، واستكشافًا لمنائر الهداية في سير الرسالة في آفاق التبليغ.

إيمان الرسول برسالته أرفع مراتب اليقين وأقوى دعائم النجاح في التبليغ:

وإيمان الرسول برسالة نفسه أرفع مراتب اليقين وأعلى درجات التثبت، وأقوى دعائم المعرفة الكاشفة لجميع مصادر الرسالة ومواردها، وأجلى لجميع مداخل ومخارج الحقيقة الكبرى التي يؤمن بها الرسول بإيمانه برسالة نفسه.

ولا يبلغ هذا الإيمان مداه الذي يؤذَن عنده للرسول - إذا بلغ إيمانه برسالته هذا المدى أن يبلِّغ عن الله جل جلاله، وعن

أمناء وحيه من خواص الملأ الأعلى، وعلى رأسهم جبريل عليه السلام ما يوحى إليه من ربه - إلا إذا عرف الرسول ربه تبارك وتعالى معرفة تكشف له عن حقيقة إرساله ورسالته انكشافًا شهوديًا، لا يحتاج معه إلى دليل حسي أو برهان عقلي، حينئذ تكون المعجزة في دلالتها على صدق الإرسال والرسالة بابًا من أبواب الشهود الفكري المطابق للشهود الروحي، وإلا إذا عرف الرسول الملأ الأعلى بأخص صفاتهم التعبدية طبعًا جبليًا، وتطبعًا تكليفيًا، وهذا خاص برسالة الخلود الخاتمة لرسالات السماء وهي الرسالة الوحيدة في سجل الرسالات الإلهية التي تناول عمومها التكليفي عوالم الملأ الأعلى تعبدًا مفطورًا بما يلائم طبيعتهم من شرائعها وتعبداتها.

وإيمان الرسول برسالة نفسه على هذا الطراز الشهودي هو في الحقيقة المعجزة الكبرى التي يستند إليها الرسول في قوة التحدي بالمعجزة المميزة بخصائصها الإعجازية في المعجزات الحسية المادية المتقضية بتقضي مهمتها في زمنها ورسالتها، أو الخصائص الفكرية الروحانية في المعجزة العلمية الخالدة، وهي القرآن الكريم.

لذلك كان إيمان الرسول برسالة نفسه نابعًا من داخل نفسه وطبيعته الروحانية التي يمده الله تعالى بها فوق طبيعته البشرية المفطور عليها إنسانًا له أكمل الخصائص البشرية، تميزًا على كافة من يشاركه في أصل الفطرة الإنسانية من

أفراد البشر، ليكون مُتنزَّلًا لوحي الرسالة، ومهبطًا لكلمة الله، تلقى إليه من وراء حجب البشرية، بلاغًا له خاصة، أولًا ليوقن إيقانًا شهوديًا يسمو به إلى تجليات إلهية، يستحيل أن يعتريها أدنى توقف من حيرة أو شك، وتكليفًا بتبليغها إلى جميع أمته أفرادًا وجماعات، مباشرة منه إليهم أو أَلْسِنة ورثته من الدعاة القائمين على تبليغ رسالته ونشر دعوته.

فالرسول نفسه مدعو من نفسه بتكليف من الله تعالى للإيمان برسالة نفسه، بل هو أول مدعو لهذا الإيمان، وهو بعد هذا مكلَّف بدعوة أمته على عمومها لتؤمن برسالته، إيمانًا يدفعها إلى التصديق والإقرار والعمل بما يبلغها من شرائع هذه الرسالة التي آمن بها قبلها.

وهذا المدد ضرب من المدد الروحاني الذي يمد به الرسول، ليكون معبرًا ممدودًا على متن الطبيعة البشرية المصطفاة، ليعبر الوحي على معبر استعدادها الشهودي إلى قلب الرسول ليعلم ما لم يكن يعلم، ويعلِّم ما علم و

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾

أما المعجزات المتميزة بخصائصها الطبيعية فكرية أو مادية فهي أمر من الغيب المنزل، خارج عن نطاق شخصية الرسول في طبيعته البشرية والروحانية، تنزل جوابًا برهانيًا بمنطق العقل للسائلين، أو المتسائلين، فهي مدد من عالم الغيب، جاءت لتكون برهانًا على صدق الرسول للذين لا

ترتفع طبائعهم إلى آفاق الإدراك الغيبي ممن يؤمنون بالرسول لأنه رسول، مكتفين بخصائصه السلوكية في حياته وأخلاقه، واستواء جانبيه، راضيًا وغاضبًا، وآمرًا وناهيًا، ومرغبًا ومرهِّبًا، والذين لا ترتفع طبائعهم إلى مستوى هذا الإدراك الغيبي الرفيع يحتاجون في رحلتهم الفكرية للإيمان بالرسول إلى مطايا عقلية أو حسية مادية، على وقع خطوها إلى ساحات العقول والأفكار يؤمن عامة البشر؛ لأنها تحملهم إلى أودية المعرفة الهادية عن طريق التأمل البرهاني الذي تمدهم به خوارق العادات الفكرية أو المادية التي تعلو بأوضاعها الخاصة وقوانينها على أوضاع وقوانين الحياة العامة، وسنن الطبيعة المألوفة.

غلط المتفلسفة في معرفة حقيقة النبوة والرسالة:

وقد غلط الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام في معرفة حقيقة النبوة والرسالة والوحي لإفراطهم في تقديس هوس الفلسفة اليونانية التي أبطل العلم التجريبي أكثر نظرياتها وآراء زعمائها، فتوهموا أن النبوة ضرب من التخيُّل إذا قوي واستكمل وجوده في الإنسان، وخلص من تأثير المحسوسات الواردة عليه من خارج طبيعته، وتحرر من قيود تأثير القوى الناطقة لاحت له حقائق الأشياء فيضا يفيض عليه من ذات نفسه يقظة أو منامًا، وهذا هو النبوة والوحي عندهم.

فالوحي الذي تَتحقق به النبوة أو الرسالة هو في نظرهم

فيض النفوس العليا الذي يكشف للنبي أو الرسول الحقائق يقظة أو منامًا برموز وأمثال من نظائرها في عالم الحس والشعور تنزلًا من فيض العقل الفعَّال على النفوس الصافية.

وقد تناقل ذلك خلفهم عن سلفهم، فذكره الفارابي في مدينته الفاضلة صريحًا مبسوطًا، لا يحتمل التأويل؛ لأنه صرح في هذا الكتاب بأن النبوة فيض من جنس المنامات، ثم التقط فكرته من بعده ابن سينا في إشاراته، غير أنه حاول بلورتها في مرايا إسلامية، وتبناها بعدهما ابن مسكويه ـ وهو لا يجري في شوطهما إلا تقليدًا لهما ـ في كتابيه الفوز الأكبر والأصغر ـ وكان تلميذًا أمينًا لنظرية الفارابي، وحاول أن يحاكي ابن سينا في تقريب هذه الآراء الفيضية التخيلية من أصول الإسلام فلم يلحق بصاحبه، وتخلف وراءه مقلِّدًا.

وقد تأثر ببعض فلتات هذا التفلسف الفيضي التخيلي أبو حامد الغزالي، فقال في كتابه (المنقذ من الضلال): فالنبوة عبارة عن طور ـ إنساني ـ يحصل فيه عين لها نور، يظهر في نورها الغيب، وأمور لا يدركها العقل... ومعك أنموذج منها، وهو مدركاتك في النوم، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم، وهي معجزات الأنبياء، ولا سبيل إليها ببضاعة العقل ولا بالتجربة. وهذا كلام غريب جدًا عن أصول الإسلام وشرائعه في النبوة والرسالة والوحي.

شواظ من إلحاد الباطنية:

وفـي مناهـج متفلسـفة التعليمية طامـات وطامـات اتكأ عليها الباطنية من الإسـماعيلية وسائر طوائفهم من الملاحدة المحرِّفيـن لأصـول الديـن، وخـاض في بحـر هـذه الترهات الفيضيـة التخيليـة بعـض مـن تأثـر بنظريات التفلسـف من المتصوفـة، فغرق فـي خضمه فريق منهـم، إلا من عصمه الله بمسـبح الشريعة المطهَّرة، فسـاحَلَ من قريب[٢٤]، وعاد إلى بر السـلامة قبـل أن يجرفه تيـار التفلسـف والمخرقة، ولعل مـن أمثل من نجا مـن هؤلاء الراغب الأصفهانـي في (تفصيل النشأتين).

وقـد صـور أبـو حيـان التوحيـدي فـي كتـاب (الإمتـاع والمؤانسـة) صـورة من طامـات إخـوان الصفا في رسـائلهم المتفلسفة على لسان شيخه أبي سليمان المنطقي، وهو شيخ سـوء، مغموز في دينه، ومتهم بوضع رسائل إخوان الصفا، أو أنه أحد واضعيها ومقدمهم.

وسـيرى القارئ فـي كلام أبي سـليمان الـذي يحكيه عنه تلميذه أبو حيان، أو الذي ينحله فينسـب إليه نظريةَ (الفيض والتخيُّل) تُصـوَّر بها حقيقةُ النبوة والوحي، وسـيرى القارئ تصريحَ أبي سـليمان المنطقي باعتقاده سـمو منزلة الفلاسفة على الأنبياء، كما هو مشـهور من مذهب الفارابي الذي دندن

---

(٢٤) ساحَل قصد الساحل. (المجلة)

حوله ابن سينا، ولوّح ولم يصرح، وجمجم ولم يفصح، ولا يخفى على القارئ اختلاف الألفاظ ولف الأسلوب في إطار الرمزية؛ لأن المعاني المقصودة من وراء ما هنا وهناك واحدة.

ونحن نسوق من كلام أبي حيان في ليلته الرابعة عشرة من (الإمتاع) ما يصور مذهب شيخه أبي سليمان، ولعله مذهبه ومذهب أصحابه من تلاميذ أبي سليمان، وهم ـ فيما يظهر لنا ـ (إخوان الصفا) أو من منتحلي مذهبهم المتفلسف الملحد.

كلام أبي حيان عن الفيض والتخيل منسوبًا لشيخه أبي سليمان المنطقي:

قال أبو حيان: سألت أبا سليمان عن السكينة، ما هي؟ فقال: السكائن كثيرة، طبيعية، ونفسية، وعقلية، وإلهية، ومجموعة من هذه بأنصباء مختلفة، ومقادير متفاوتة ومتباعدة، والسكينة الطبيعية: اعتدال المزاج بتصالح الأسطُقُسَّات(٢٥)، تحدث به لصاحبه شارة تسمى الوقار، ويكون للعقل فيها أثر باد، وهو زينة الرواء المقبول.

والسكينة النفسية: مماثَلة الروية للبديهة، ومواطأة البديهة للروية، وقصد الغاية بالهيئة المتناسبة، يحدث بها لصاحبها سمت ظاهر، ورنو دائم، وإطراق لا وجوم معه،

(٢٥) الأسطقسات اسم كتاب في الطب لجالينوس، وهي كلمة يونانية مفردها (أسطُقُسّ) بمعنى عنصر. وكان الطب القديم يرى أن الصحة نتيجة لتصالح أو توازن العناصر الأربعة وهي الماء والهواء والنار والتراب. (المجلة)

وغيبة لا غفلة معها، وشهامة لا طيش فيها.

والسكينة العقلية: حسن قبول الاستفاضة بنسبة تامة إلى الإفاضة، ومعنى هذا أن القابل مستغرق بقوة المقبول منه، وبهذه الحال يحدث لصاحبها هدى يشتمل على وزن الفكر في طلب الحق مع سكون الأطراف في أنواع الحركات.

والسكينة الإلهية لا عبارة عنها على التحديد؛ لأنها كالحلم في الانتباه، وكالإشارة في الحلم، وليست حلمًا، ولا انتباهًا في الحقيقة؛ لأن هذين نعتان محمودان في عالم السيلان والتبدل، جاريان على التخيل والتجوز، بزوائد لا ثبات لها، ونواقص لا مبالاة بها، روحانية في روحانية كما يقال «هذا صفو هذا» و«هذا صفو الصفو» ومن لحظ هذه الكيفية، وبوشر صدره بهذه الحقيقة استغنى عن رسوم محدودة بألف ولام، وحقائق مكنونة في عرض الكلام، وإذا جهلنا أشياء هي لأهل الأنس بلغات تفطروا عليها، وعبارات أنسوا بها، كيف نجد السبيل إلى الإفصاح والإشارة إليها.

فعلى هذا الصمت أوجد للمراد من النطق، والتسليم أظفر بالبغية من البحث.

ثم يسوق أبو حيان سؤالًا من أحد أخصَّاء تلاميذ أبي سليمان المنطقي، هو أبو العباس البخاري، يقول فيه: فشيء كهذا بدقيقه وإشكاله، وغموضه وخفائه، كيف يظهر على جبلة بشرية وبنية طينية، وكمية مادية، وكيفية عنصرية؟

أبو سليمان المنطقي يجمجم ثم غلب على باطنه فصرَّح وتكشّف:

فقال أبو سليمان، يجيب تلميذه: يا هذا، إنما يشع من هذه السكينة على قدر ما استودع صاحبها من نور العقل، وقبس النفس، وهبة الطبيعة، وصحة المزاج، وحسن الاختيار، واعتدال الأفعال، وصلاح العادة، وصحة الفكرة، وصواب القول، وطهارة السر ومساواته للعلانية، وغلبته بالتوحد، وانتظام كل صادر منه ووارد عليه.

وهاهنا تمحى الجبلة البشرية، وتتبدد الجبلة الطينية، وتبيد الكمية المادية، وتعفو الكيفية العنصرية، ويكون السلطان والولاية، والتصريف والسياسة كلها لتلك السكينة التي قدمنا وصفنا لها، واشتد وجدنا بها، وطال شوقنا إليها، ودام تحديقنا نحوها، واتصل رنونا إليها، وتناهت نجوانا بذكرها.

قال أبو سليمان لتلميذه: وهذا هو الخلع الذي سمعت بذكره، واللباس الذي سألت عنه، أعني خَلْعُ ما أنت منه إنسان، ولبس ما أنت به مَلَك.

الله المستغاث منكم، ما أشد بلواي بكم، لم لا تتحركون إلا إلى ما لا سكون لكم فيه، ولم تسألون عما لا اطلاع لكم عليه؟ سلوا ربكم أعينًا بصيرة، وآذانًا واعية، وصدورًا طاهرة، وقوة متتابعة، فإنكم إذا منحتموها هديتم لها، وإذا حرمتموها

قطعتم دونها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال أبو العباس البخاري لشيخه أبي سليمان المنطقي: وقد تركنا يا سيدنا حديث السكينة المجموعة من هذه الجملة بأنصباء مختلفة.

فقال أبو سليمان يرد على تلميذه: نعم، والسكينة المجموعة من كل ما سلف القول فيه تقاسمها نوع الإنسان بالزيادة والنقصان، والغموض والبيان، والقلة والكثرة، والضعف والقوة.

وهذا يتبين بأن تقسم الطيش والحدة، والعجلة والخفة على أصحابها فتجد التفاوت ظاهرًا، وكذلك إذا قسمت الهدوء والقرار والسكون والوقار على أهلها، فإنك تجد التباين مكشوفًا، والاختلاف ظاهرًا.

ثم قال أبو سليمان: أما السكينة التي هي في أعلى المراتب فهي لأشخاص هم فوق البشر، وليس لهم نسبة من الخلق إلا الخلقة الحسية، والعشرة البشرية، وإلا فهم في ذروة عالية ومحلة إلهية.

ثم قال: وأما السكينة التي تلي هذه فهي للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها؛ لأنها مرتبات تنقسم بين المنام واليقظة انقسامًا متفاوتًا بالعرض الحامل للصدق، والشبيه بالصدق، وللحق وللقرب من الحق، وللصحيح والتالي للصحيح، ثم يختلف بيانهم عن ذلك بالتعريض والإيضاح،

والكناية والإفصاح، والتشبيه والاستعارة.

ثم قال أبو سليمان: فأما السكينة التي تتلو هذه فهي التي تظهر على طائفة تخلف الأنبياء؛ وذلك أن بقايا قواهم يرثها الذين صحبوهم، واستضاءوا بنورهم، وفهموا عنهم، ولقنوا منهم، ودخلوا في زمرتهم، وحاكوهم في الشمائل والأخلاق، وسلكوا منهاجهم في القيادة والسياق، وصلحوا سفراء بين الأبعدين، كما كانوا سجراء للأقربين[٢٦]، وهم الذين يفسرون الغامض، ويوضحون المشكل، ويبسطون المطوي، ويشرحون المكني، ويبرزون المراد والمعنى، ويوطدون الأساس، ويرفعون الالتباس، وينفون الوحشة، ويحدثون الإيناس.

وأما السكينة الباقية فهي مفضوضة على أتباع هؤلاء بالسهام العلوية والمقادير العدلية، والمناسيب العقلية من غير جور ولا حيف، ولا انحراف ولا ميل.

فقال له تلميذه البخاري: أهي ـ أي السكينة ـ في معنى فاعلة أو مفعولة؟

فقال أبو سليمان: الفضاء أعرض مما تظن، وإن كان في غاية العرض، والذروة أعلى من أن ترام، وإن كان الإنسان يطلبها بالبسط والقبض.

(٢٦) سَجَرَ التنورَ ملأه بالخشب لتحمى النار فيه والبحر المسجور المملوء ويستعار للإعانة والنصر فيقال للصديق الصفي سجير. (المجلة)

هي بوجه في معنى فاعلة إذا شعرت بتأثيرها، وبوجه آخر في معنى مفعولة إذا شعرت بتأثرها، وبوجه آخر ليست من هذين القبيلين في شيء إذا لحظتها في معانيها قبل تأثيرها وتأثرها.

وأنت تعتبر حد الفاعل والمفعول من شكل اللفظ ووزن الترتيب بشائع العادة وقائم العرف والسكينة وراء ذلك كله بالحق والواجب والصحة والتمام، فإنها صراط الله للمخصوصين بالاستقامة عليه، فإذا شهدت المخصوص بها كانت عبارتك عن الملحوظ منها مشاكلة لعبارتك عن أخلاق رضية وأحوال مرضية، وإذا شهدت ذلك المعنى من معاني الحق كانت عبارتك متلجلجة، لا نظام لها ولا تعادل ولا اتساق على العادة الجارية والحالة الطارئة، فأجلّ ما ينبغي لطالب الحكمة، اللائذ بهذه الحومة أن يبحث وينظر، ويكشف وينقر، ويستقصي ويسهر، ويسأل ويستبصر، حتى إذا بلغ هذه الآفاق، وشهد هذه الأعلام، ووجد الصواب الذي لا شوب فيه، وصادف اليقين الذي لا ريب معه، وعرف الاستبانة التي تغني عن البيان، وذاق المعنى الذي هو فوق العيان، أمسك وانتهى، ووقف واستغنى، لا لعرض ظلام غشيه، ولكن لسلطان شعاع ملكه؛ لأن ذلك النور محيط بكل شيء دونه، ومستول على كل شيء تحته.

انكشاف الغطاء عن سوأة أفكار أبي سليمان وجماعته:

قال أبو حيان التوحيدي في التعقيب على ما ساقه في هذا الفصل من كتاب (الإمتاع) من كلام أبي سليمان المنطقي أستاذه وأستاذ أصحابه، وهو تعقيب يكشف عن سوأة إلحاد خبيث، ويبين أن صاحب هذه الأفكار يدس من ورائها في حنايا صدره لونًا خبيثًا من الإلحاد المتدسس، وأن مِنْ خلفه مَنْ يلتقطون شذرات هذا الإلحاد لينظموا منه عقدًا مكتوبًا، وكتابًا مقروءًا للإضلال وتحريف كلم الله تعالى في رسالاته عن مواضعها، تسترًا وراء التفلسف الأجوف والرمز المبرسم.

وفي هذا التعقيب البين يقول أبو حيان: وكان -أي أبو سليمان المنطقي- يقول في هذا الفن إذا جد به الكلام، وبدا منه المكتوم، وشرد عنه الخاطر ما لا يوعى بحفظ، ولا يروى بلفظ.

وإنما كان أصحابنا ينتظرون منثوره بهذه الحروف لفظًا لينظموا منه شذرًا وعقدًا، وكانوا إذا تلاقوا اشتركوا في تقويم ذلك، وتعاونوا على تحبيره، وتصادقوا على مفهومهم منه، وتجنبوا المنازعة والشغب عليه، وأخذوا بالعفو والممكن منه، لئلا يفوتهم المعنى، ولا يتحيرون في المنتهى.

تنبيه يكشف عن حقيقة هذا التفلسف الخبيث:

وهذا كلام واضح المنحى، بيِّن المرمى، ولا يحتاج في فهم أهدافه وغاياته إلى كد الفكر على رغم تلففه في أكفان الرموز

والمعميات، والإشارات المتغمضة، وجلابيب الهلوسة المتفلسفة، ولا سيما في الحديث عن السكينة الإلهية، وقول أبي سليمان المنطقي في وصفها: لا عبارة عنها على التحديد؛ لأنها كالحلم في الانتباه، وكالإشارة في الحلم، وأنها ليست حلمًا ولا انتباهًا في الحقيقة.

والمتعارف عند جميع العقلاء الشعوريين أن الانتباه أعلى درجات التيقظ، وأرفع مراتب الشعور، وأجلى مظاهر الإحساس، فإذا لم تكن سكينة أبي سليمان الإلهية حلمًا في رؤى النوم حيث لا شعور ولا انتباه، وإذا لم تكن انتباهًا في أكمل درجات التيقظ والإحساس، فماذا تكون تلك السكينة؟ وكيف تكون كالحلم في الانتباه مع أن الانتباه أرفع مراتب التيقظ، وأجلى درجات الحس والشعور؟ ولا يحلم في اليقظة إلا المبرسمون.

ومن بداهات العقل أن الحلم لا يكون إلا عند فقدان الشعور الذي هو أقوى معالم النوم، أو بالذهول المستغرق لمناطق الإحساس والشعور.

وقوله في الرد على سؤال تلميذه أبي العباس البخاري الذي كان من بين الجماعة كأنه مسعر إثارة لكوامن أبي سليمان ليسترسل في معمياته، وغوامض رموزه وإشاراته، عسى أن يكبو جواد حرصه على الغموض الرمزي، فيصرح بما يكن ويكتم.

فهذا البخاري يسأل شيخه أبا سليمان قائلًا: فشيء كهذا ـ أي السكينة الإلهية ـ بدقيقه وإشكاله، وغموضه وخفائه، كيف يظهر علي جبلة طينية، وكمية مادية، وكيفية عنصرية. وهو يقصد بموضوع هذه الأوصاف ومصدوقها في الوجود الخارجي الإنسان في صورته البشرية بما لها من خصائص الشعور والإحساس والإدراك.

فيجيبه أبو سليمان قائلاً: يا هذا، إنما يشع من هذه السكينة على قدر ما استودع أصحابها من نور العقل، وقبس النفس، وهبة الطبيعة، وصحة المزاج، وحسن الاختيار، واعتدال الأفعال، وصلاح العادة، وصحة الفكرة، وصواب القول، وطهارة السر، ومساواته للعلانية، وغلبته بالتوحد، وانتظام كل صادر منه، ووارد عليه.

وهاهنا تُمحَى الجبلة البشرية، وتتبدد الجبلة الطينية، وتبيد الكمية المادية، وتعفو الكيفية العنصرية، ويكون السلطان والولاية والتصريف والسياسة كلها لتلك السكينة التي قدمنا وصفنا لها، واشتد وجدنا بها، وطال شوقنا إليها، ودام تحديقنا نحوها، واتصل رنونها إليها، وتناهت نجوانا بذكرها.

قال: وهذا الإمحاء ـ أي للجبلة الطينية، والإبادة للكمية المادية ـ هو الخلع الذي سمعت بذكره، واللباس الذي سألت عنه، أعني ـ أي أبو سليمان ـ خلع ما أنت منه إنسان، ولبس ما أنت به ملك.

وهـذا الكلام من غرائـب الرمـوز الإلحاديـة الباطنية، في تحريف الحقائق، وهو تفلسـف ماكر مغرور لأن إمحاء الجبلة الطينية، وإبادة الكمية المادية مع بقاء معالمها ورسـومها في خلقة الإنسان وتكوينه البشري، وهيئته البدنية، وبقاء آثارها مشهودة في حركات الإنسان وسكناته، وعزته البشرية ضرب من المحال، لا يعقله إلا المبرسمون.

ولهـذا اسـتغاث أبو سـليمان مـن توقف تلاميـذه في فهم هذه المحالات المبرسـمة، وسـؤالهم إياه أن يكشف لهم عن رموزها ومعمياتها.

والطامة الكبرى في هذا الكلام الخبيث قول أبي سليمان: أمـا السـكينة التي هي فـي أعلى المراتب فهي لأشـخاص هم فوق البشـر، وليست لهم نسبة من الخلق إلا الخلقة الحسية، والعشرة البشرية، وإلا فهم في ذروة عالية، ومحلة إلهية.

وهـذا كلام يفضـح مكنون الرمـوز الغامضة، والإشـارات المعماة، في تفلسف أبي سليمان وعصابته؛ لأنه كلام تنفرج سـوآته عن سـؤال يصطرخ في وجه أبي سليمان وجماعته من متفلسفة ملاحدة الباطنية.

من هم أولئك الأشـخاص الذين هم في حقيقتهم الوجودية خلقة وإحساسًـا إنسـانيًا، وعشـرة بشرية، بشـر من البشر، ولكنهـم بهذه الأخلوقة التي اختلقها أبو سـليمان، وسـماها السكينة الإلهية، امتازوا عن سائر البشر، فصاروا فوق البشر،

فـي ذروة عاليـة، ومحلـة إلهيـة ـ كما زعـم لهم أبو سـليمان المنطقي، وشرذمته من المتفلسفة التحريفيين؟

أهـم الأنبياء والرسـل المصطفون لقيادة الإنسـانية إلى ذروة كمالهـا المقدور؟ وهؤلاء الأنبياء والرسـل هم في حقيقة الواقع الوجودي أعلى ذروة للإنسانية، روحانية، وعقلاً، وكمالاً بشريًا؟

ولكن أبا سـليمان المنطقي يأبى عليه إلحاده المتفلسف، أن يكون أولئك الأشخاص الذين رفعتهم سكينته فوق مستوى ذروة البشـر، هم صفوة الصفوة من الأنبياء والرسل؛ لأنه يرى في تفلسفه الباطني الملحد أن الأنبياء والرسل أحط مرتبة من أشخاص سكينته الذين هم في ذروة عالية، ومحلة إلهية.

وإذا أخـرج منطق تفلسـف أبي سـليمان المنطقي الأنبياء والرسل من زمرة أشخاص سكينته الإلهية، وجعلهم في مرتبة أحط من مرتبة أشـخاص هذه السـكينة المزعومة عاد السؤال مسـتبينًا ليعرف حقيقة ومعالم أشـخاص سكينته الذين اشتد وجده بهم، وطال شوقه إليهم، وتناهت نجواه بذكرهم، وهم ـ كما صرح ـ ليسـوا بأنبياء، وليسـوا رسلاً لله تعالى، ولكنهم فوق الأنبياء والرسل.

والذين تمرسـوا على كشـف حجب الضلالات الرمزية في أسـاليب متفلسـفة الباطنية، ومرنوا على أسـاليب متفلسـفة عبيد الفلسـفة اليونانية في إشـارات (أبسـال وسـلامان من الأحاجي والألغاز التي تطوي تحتها أشـياء وأشياء، يعرفون أن

أبا سليمان المنطقي وعصابته لا يقصدون بأشخاص سكينتهم الإلهية الذين هم - في زعمهم - فوق مستوى ذروة البشرية، بأنبيائها ورسلها، إلا مؤلهيهم من الفلاسفة، الذين يرونهم - كما هو ظاهر في كتب أبي نصر الفارابي ومن تقبَّله - أفضل وأعلى منزلة من الأنبياء والرسل؛ لأن صناعتهم، وهي الفلسفة أجل - في نظرهم - من النبوة والرسالة، وإلا مؤلهي الحلولية الباطنية في اعتقادهم مخرقة الأئمة التعليمية المختفين في سراديب الجبال، يسبحون في العسل والماء.

وأيما أراد أبو سليمان المنطقي وجماعة تلاميذه بأشخاص أخلوقتهم وسكينتهم من شراذم الإلحاد والضلال الكفور فأمرهم لا يخرج عن كشف سوء معتقدهم في فهم النبوة ومعرفة حقيقتها.

ويمضي أبو سليمان المنطقي في هذه الطامات الإلحادية، فيقول: أما السكينة التي تلي هذه فهي للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها؛ لأنها مرتبات تنقسم بين النوم واليقظة انقسامًا متفاوتًا بالعرض الحامل للصدق، والشبيه بالصدق وللحق والقريب من الحق، وللصحيح، وبالتالي للصحيح. وهذا كلام صريح في أن مرتبة الأنبياء في حظهم من سكينة أبي سليمان المنطقي وجماعته تالية لمرتبة المؤلهين من الفلاسفة وأئمة التعليميين، الذين هم - في نظر أبي سليمان - فوق البشر، بما فيهم الأنبياء والرسل.

ومرتبة الأنبياء من سكينة أبي سليمان فيها الصدق، والشبيه بالصدق، وفيها الحق وقريب من الحق، وفيها الصحيح والتالي للصحيح، ولا بد من سؤال عما هو هذا الشبيه بالصدق في مرتبة الأنبياء من سكينة أبي سليمان، وليس بصدق؟ أهو الكذب؟ أم شيء وراء الصدق والكذب لا يوصف بالصدق ولا بالكذب، وإذن فما هو؟

ولا بد من السؤال عن هذا الأمر الذي ليس حقًا ولكنه قريب من الحق في حظ الأنبياء من مرتبة سكينة أبي سليمان، أهو الباطل؟ أم شيء وراء الحق والباطل، لا يوصف بأنه حق أو باطل، وإذن فما هو؟

ولا بد من السؤال عن هذا الشيء الذي ليس صحيحًا ولكنه تالٍ للصحيح؟ أهو الأمر الفاسد؟ أو هو شيء وراء الصحيح والفاسد، لا يوصف بالصحة ولا بالفساد، وإذن فما هو؟

والعقلاء قاطبة لا يعرفون في حقائق الأشياء حقيقة شبيهة بالصدق وليست صدقًا سوى الكذب المموه بالخداع والتغرير، ولا يعرفون شيئًا قريبًا من الحق وليس حقًا سوى الباطل المغلف بالغموض والرموز، ولا يعرفون أمرًا تاليًا للصحيح وليس صحيحًا سوى الأمر الفاسد الملفوف بلفائف المخادعة.

فهل يعني أبو سليمان المنطقي أن حظ الأنبياء من سكينته أنهم في منزلة بين منزلتين، فلا هي صدق، ولا هي كذب، ولا

هي حق، ولا هي باطل، ولا هي صحيح، ولا هي فاسد.

فإذا قيل لأبي سليمان: ما هي هذه المنزلة التي يحيا بها الأنبياء في نبوتهم؟ صرخ أبو سليمان مستغيثًا يقول: واغوثاه منكم، لم لا تتحركون إلا إلى ما لا سكون لكم فيه؟ ولم تسألون عما لا اطلاع لكم عليه؟ ما أشد بلواي بكم؟

ونمضي مع أبي حيان التوحيدي في إمتاعه حتى نصل في حديث هذه الليلة إلى أبي سليمان عاري العقيدة، مكشوف سوأة التفكير، ينادي عليه أبو حيان فيقول: (وكان - أي أبو سليمان - يقول في هذا الفن إذا جد به الكلام، وبدا منه المكتوم، وشرد عليه الخاطر ما لا يوعى بحفظ، ولا يروى بلفظ، وإنما كان أصحابنا ينتظرون منثوره بهذه الحروف لفظًا، لينظموا منه شذرًا وعقدًا، وكانوا إذا تلاقوا اشتركوا في تقويم ذلك كله، وتعاونوا على تحبيره، وتصادقوا على مفهوم منه، وتجنبوا المنازعة والشغب عليه، وأخذوا بالعفو والممكن منه، لئلا يفوتهم المعنى ولا يتحيروا في المنتهى).

وهذه الفقر التي يصور بها أبو حيان حال شيخه أبي سليمان المنطقي أدق تصوير صريحة في أن أبا سليمان كان ينطوي على مستكنة من الإلحاد المتفلسف، وكان يجمجم لتلاميذه متدسسًا بأفكاره ومذهبه، كتومًا بدخيلته ومعتقده، معتصمًا بالرموز الغامضة والإشارات المعماة، حتى إذا سكر مع تلاميذه بخمرة الفكرة في خلوة الحديث الذي يستحوذ

علـى عقله وقلبه، وروحه، وإحساساته ومشـاعره بدا منه ما كان يكتم في صدره من إلحاد، وما يكن في دخيلته من ضلال، وشـرد عنـه الخاطـر جامحًا لا يملكـه لجام الإرادة، فيتكلم بأشـياء لا توعى بحفظ فرقًا أن يند منه حرف ينم عنه، ويشير إليـه، ولا تروى عنه بلفظ، جبانة عن التهمة بسـوء الاعتقاد وضلال الإلحاد.

وإنمـا كان همّ تلاميذ أبي سـليمان معـه أن يتلقفوا منه ما عفـا لهم من لفـظ يرمي به ليشـتركوا في تقويمـه وتحبيره، ويتوافقـوا على مفهومهم منـه، دون منازعة أو اعتراض عليه، لئلا يضيـق بهم ذرعًا، فيفوتهم ما اسـتهدفه من فكرة ومعنى أرادهم به، ليضبطوه وينشروه عنه دون تقيد بلفظه وعبارته.

وإلـى هنا نكف عنان القلم مكتفيـن من ليلة أبي حيان عن شـيخه أبي سليمان وسـكائنه وجمجمته وتدسسـه بأفكاره إلى عقـول تلاميذه بما نقلنـاه منها، ونبهنا عليـه من مواطن التدسـيس الفكري الذي انتهى بتعرية أبي سـليمان المنطقي وعصابة تلاميذه، وكشـف الغطاء عن إلحادهم الذي أبان عنه أبو سليمان في سكينته الإلهية، وأفصح عنه أبو حيان في فقره التـي صور بها حال شـيخه أبي سـليمان، وموقف تلاميذه من أفـكاره وأحاديثه معهـم، مما يجعلنا نرجح، بـل نكاد نقطع أن أبا سـليمان المنطقي وعصابة تلاميـذه، وفي طليعتهم أبو حيـان التوحيـدي، صاحب (الإمتـاع والمؤانسـة) وصاحب

(المقابسات)، هم هم (إخوان الصفا) الذين دبجوا بأقلامهم ما تلقفوه من تدسسات شيخهم المتفلسفة، وضلالاتهم الباطنية الملحدة، وأخرجوه للناس في رسائلهم المسمومة المشهورة، والله تعالى هو الكفيل بالمجازاة العادلة.

تفنيد ابن تيمية آراء الفلاسفة والباطنية الملاحدة في النبوة والوحي:

وقد عرض الإمام ابن تيمية في مواضع متعددة من كتابه (النبوات) لآراء الفلاسفة ومن شاكلهم من أرباب الملل والمذاهب في فهم النبوة والوحي، ففندها، وكشف عن زيفها، وأبان بطلانها فقال: وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة، فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم، وهو المنام، فهؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حق قدرها، وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق.

وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعال، فما يأتي به الأنبياء من الآيات هو عندهم كله من قوة نفس الإنسان، فالخبر بالغيب هو لاتصال نفوسهم بالنفس الفلكية التي يسمونها اللوح المحفوظ، وهذا يحصل للسحرة والممرورين والمصروعين.

ثم قال ابن تيمية: ولما أراد طائفة كأبي حامد الغزالي وغيره أن يقرر إمكان النبوة على أصلهم احتجوا بأن مبدأ

الطب، ومبدأ النجوم ونحو ذلك كان من الأنبياء، لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك.. وعلى هذا بنى ابن سينا أمر النبوة على أنها من قوى النفس، وقوى النفس متفاوتة.

وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة، بل هو أجنبي عنها، وأبو حامد في مثل معراج السالكين ونحوه يشير إلى أن العلم غاية، لا وسيلة، فإن كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة، ففيه فلسفة مشوبة بإسلام، وإسلام مشوب بفلسفة.

ولهذا ذاكرني مرة شيخ جليل، له معرفة وسلوك، وعلم بهذا، فقال: كلام أبي حامد يشوقك، فتسير خلفه، وهو يشوقك فتسير خلفه، منزلاً بعد منزل، فإذا هو ينتهي إلى لا شيء.

تحقيق معنى النبوة والرسالة عند ابن تيمية:

ثم قال ابن تيمية: والمقصود هنا الكلام على النبوة، فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأه الله، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول.

وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول.. فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم.. فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى

توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له كانوا رسلًا بإطلاق.. فالنبي وإن كان مرسلاً أي منبئا لينبئ المؤمنين به لا يسمى رسولاً عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه.. وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولاً وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة. انتهى ما أردنا من كلام الإمام ابن تيمية.

تبيان وتوضيح في معنى النبوة والوحي:

فالنبوة في دين الإسلام هي إنباء الله تعالى من يصطفيه من الناس بطريق من طرق الوحي بما يشاء إنباءهم به من أمر، أو نهي، أو خبر، أو أدب وتوجيه وإرشاد، فإن كان هذا الإنباء تكليفًا بتبليغ ما أنبأه به إلى غيره من المكلفين بقبول دعوته كان بهذا التكليف التبليغي رسولاً على الإطلاق، وإن لم يكن هذا الإنباء تكليفًا بالتبليغ، على معنى أن الله تعالى أنبأه بما شاء من أمره، ولكنه لم يأمره بتبليغ ما أنبأه به إلى غيره وإنما طلب منه العمل به في خاصة نفسه ـ كان حينئذ نبيًا أي مُنبَأً ومنبئًا عن الله تعالى، دون أن يكون إنباؤه لغيره بما أنبئ به تكليفًا تبليغيًا، فإن سمي حينئذ رسولاً فهي تسمية توسعية، وإطلاق عرفي خاص لأنه رسول إخبار، لا رسول تبليغ.

أما الوحي في دين الإسلام وشرعته فهو إنباء الله تعالى وإعلامه لمن يصطفيه لهذه المرتبة العلية في مراتب البشر

بما يشاء من أمره بأية طرق من طرق الإنباء والإعلام، وهي الطرق التي هي مراتب الوحي وأنواعه التي عرفها علماء الإسلام تلقيًا عن رسول الله ﷺ وهي إما منامية، رؤى صادقة، تجيء مثل فلق الصبح وضوحًا وجلاء، وإما يقظية، وتحتها مراتب، والمنامية هي أول مراتب الوحي، تأتي توطئة وتمهيدًا لمراتب الوحي اليقظي، التي هي أكثر مراتب وحي الرسالة، وهي متفاوتة، وأعظمها مرتبة لقاء الملك يقظة بوحي القرآن الكريم، وكل ذلك من مراتب الوحي مندرج في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾

(الشورى: ٥١)

مرحلة انفراد النبوة لم ينزل فيها قرآن قط:

في دائرة ما استطعنا الوصول إليه من البحث مطمئنين، انتهينا إلى أن نبوة نبينا محمد ﷺ كانت متقدمة زمنًا ووحيًا على رسالته، وهذا قدر توافقنا فيه مع آراء جمع من محققي الأئمة الأعلام من السلف والخلف الذين أشرنا إلى أقوالهم في موضعها من البحث.

كما انتهينا إلى أن مرحلة انفراد النبوة بزمنها ومراتب وحيها - سواء أطالت كما في مرسل الشعبي وقرن إسرافيل بالنبي ﷺ في زمنها، الذي بلغ بها ثلاث سنين، أم قصرت

كما في رواية دلائل البيهقي التي انتهت بها إلى ستة أشهر، وهي مدة الرؤيا المنامية الصادقة، وهي أول وأكثر مراتب وحي النبوة - لم ينزل فيها على النبي ﷺ شيء من القرآن، وأنها كانت توطئة وتمهيدًا للرسالة ووحيها.

وقد بيَّن مرسل الشعبي أن مرتبة النبوة كان الوحي فيها بالرؤيا الصادقة، وسماع الكلمة والشيء من الوحي، تعليمًا للنبي ﷺ وتأديبًا له بأدب الاصطفاء الذي تميز به على سائر البشر، وأن الذي قرن به في مدة انفراد النبوة من الملائكة هو إسرافيل عليه السلام، وأن جبريل عليه السلام لم يقرن به إلا حيث بدأت الرسالة ببدء نزول القرآن في وحي يقظي أنزل عليه فيه:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق: ١ - ٥)

وهذا كان ترجيحًا منا لم نكن قد انفردنا به، ولكنه كان نتيجة بحث اطمأن إليه نظرنا في النصوص التي أوردنا منها عديدًا من الأحاديث المثبتة لذلك.

لم ينزل قط قرآن في وحي منامي:

وحديث الشعبي بقرن إسرافيل بالنبي ﷺ مدة نبوته صريح في أن مدة انفراد النبوة بزمنها ووحيها، لم ينزل فيها

قـرآن قط، وأن نـزول القرآن ابتدأ وانتهى على لسـان جبريل عليـه السـلام الـذي قـرن بالنبي ﷺ بعـد انتهاء مـدة انفراد النبـوة، وبدء الرسـالة، وكان بدء قرن جبريـل بالنبي ﷺ في أول لقاء يقظي وقع في مفاجأة الغار التي نزل فيها أول ما نزل من القرآن على الإطلاق الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ).

وحديـث الشـعبي صحيـح الإسـناد إليـه ـ كما صـرح بـه شـارح المواهب ـ معتمد عند المحققين من أئمة العلم وأعلام المحدثين، وإرساله لا يصلح أن يكون مطعنًا لرده وعدم الأخذ بـه؛ لأن ما جاء [فيه] من الأمور التي لا تقال بالرأي، والتي لا سـبيل إلى الاجتهـاد في مثلها، فلا بد أن يكـون مرفوعًا إلى النبـي ﷺ وأن الشـعبي رواه عن صحابي تلقـاه من النبي ﷺ والشـعبي من أوثق أئمة التابعين، فلا يرد قوله إلا بما يعارضه معارضة لا مدفع لها من طريق من هو مثل الشـعبي في الثقة أو مَنْ هو أوثق منه، ولم يقع لنا له معارض إلا ما جاء عن الواقدي، وقد أبنا حاله في عدم صلاحيته لمعارضته.

وقـد أوضحنا سـبيل ما جاء في مرسـل عبيد بـن عمير من حديـث نمط الديباج في النوم، إقراء جبريل النبي ﷺ الآيات الخمـس التي افتتحت بها سـورة (اقـرأ) والتي كانـت بدءًا لنـزول القـرآن الكريـم فـي أول لقـاء يقظي لقي فيـه جبريل النبـي ﷺ في مفاجأة الغار، وأوضحنا أن جمهور العلماء على أن القـرآن الكريم لم ينزل منه شـيء قط في النـوم، وأنه نزل

جميعـه كله في وحي اليقظة، وما ورد مـن الروايات الموهمة لنزول شيء من آي القرآن في النوم كرواية نزول

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾

ليس نصًا في ذلك، وهو سـهل التأويل فلا يعارِض ما يشبه الإجماع.

روى الإمام مسـلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسـول الله ﷺ بيـن أظهرنا إذ غفا إغفاءة، ثم رفع رأسـه متبسـمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: «أنزل علي آنفًا سورة» فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾

(الكوثر: ١ -٣).

قال الحافظ السـيوطي في الإتقان: قـال الإمام الرافعي في أماليـه: فهم فاهمون مـن الحديث أن السـورة نزلت في تلك الإغفـاءة، وقالـوا: من الوحـي -أي وحي القرآن- مـا يأتيه في النوم.. لكن الأشـبه أن يقال: إن القرآن كله نزل في اليقظة.. وقـد يحمل ذلك -أي الإغفاءة- على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي، ويقال لها: بُرَحاء الوحي[٢٧].

(٢٧) البرحاء الشـدة أو الحمى. وبرحاء الوحي ما يعانيه النبي من شدة وقت تلقي الوحي.. (المجلة)

قال السيوطي: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه.. وليس الإغفاء - أي في هذا الحديث - إغفاء نوم، بل هو الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي، فقد ذكر العلماء أنه ﷺ كان يؤخذ عن الدنيا.

دعوى أن الرسالة بدأت بنزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ وأن النبوة بدأت بنزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ غير مُسلّمة:

بيد أن بعض الباحثين في السيرة النبوية من علمائنا القائلين بانفراد النبوة متقدمة على الرسالة زمنًا ووحيًا يأتي في كلامهم أن رسالة النبي ﷺ بدأت بنزول قول الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ (المدثر: ١، ٢)

محتجين بورود صريح الأمر بالإنذار، وأن أوائل سورة (اقرأ) ليس فيها ما يدل على الإرسال وطلب التبليغ الذي هو خصيصة الرسالة.

ويصرح فريق منهم بأن نزول أوائل سورة (اقرأ) كان من وحي النبوة، بل كان - في رأي بعضهم - هو ابتداء النبوة، ثم فتر الوحي إلى أن بدأت الرسالة بالأمر الصريح بالإنذار الذي جاء في الآية الثانية من سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾

وإلى هذا ذهب القسطلاني في مواهبه وشارحها الزرقاني، إذ قالا: فقد تبيَّن أن نبوته عليه الصلاة والسلام كانت متقدمة

على إرساله ؛ لأن نزول ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ - أي الذي كان به بدء إرساله في رأيهم - إنما كان بعد الفترة الواقعة بعد النبوة، على ما ذهب إليه أبو عمر بن عبد البر، وحكاه أبو أسامة بن النقاش، وكان في نزول ﴿ٱقْرَأْ﴾ نبوته، وفي أول سورة (المدثر) إرساله بالنذارة والبشارة والتشريع، وهذا قطعًا متأخر عن الأول ؛ لأنه لما كانت سورة ﴿ٱقْرَأْ﴾ متضمنة لذكر أطوار الآدمي من الخلق والتعليم والإفهام ناسب أن تكون أول سورة أنزلت، وهذا هو الترتيب الطبيعي، وهو أن يذكر سبحانه وتعالى ما أسداه إلى نبيه عليه الصلاة والسلام من العلم والفهم، والحكمة والنبوة، ويمن عليه بذلك في معرض تعريف عباده بما أسداه إليهم من نعمة البيان الفهمي، والنطقي، والخطي، ثم يأمره سبحانه وتعالى أن يقوم فينذر عباده.

قال الزرقاني : فلهذه النكتة كانت النبوة سابقة، وقيل : هما متقارنان، وحكى تصحيحه عن بعض الشيوخ، ويؤيده أن الوضوء والصلاة كانا أول الوحي مع نزول (اقرأ)، فإن مفاده أنه لم يأمر خديجة وعليًا بهما إلا بعد الوحي إليه بذلك، وهذا عين الرسالة، وتأخر ظهورها لا يضر لجواز أنه أمر بالتبليغ حالًا لمن علم إجابته وعدم إبائه.

وقول صاحب المواهب : وكان في نزول (اقرأ) نبوته غير

مسلّم؛ لأن قول شارحه الزرقاني: ويؤيده أن الوضوء والصلاة إلى آخر ما ذكره في عبارته يرده ويثبت أن الرسالة بدأت بنزول أول ما نزل من القرآن، وهو أوائل سورة (اقرأ).

ولا وجه لقول الزرقاني: وتأخر إظهارها لا يضر؛ لأن وجودها وتحققها يقتضي إظهارها بالتبليغ، والأمر بالتبليغ عام لا يخص شخصًا دون شخص، ومن علم إجابته وعدم إبائه كان موجودًا تحت بصر النبي ﷺ وسلطانه الاجتماعي؛ لأن خديجة كانت الزوجة الوفية وكانت وزيرة الصدق في كل ما ينوب النبي ﷺ من أعباء رسالته وعلي رضي الله عنه كان في كنف الرعاية النبوية والتربية الأبوية، فإجابتهما من أول لحظة وعدم إبائهما متوافر الأسباب.

ولا سند لدعوى مقارنة الرسالة للنبوة التي صحّحها بعض الشيوخ - كما قال الزرقاني - لأن حديث الشعبي وغيره من الأحاديث التي تفيد تقدم النبوة على الرسالة زمنًا ووحيًا يردّ هذه الدعوى، بل إن حديث عائشة عند الشيخين وغيرهما، وهو العمدة في أحاديث بدء الوحي يُفهم منه تقدم النبوة على الرسالة، فقد جاء فيه قولها رضي الله عنها: (كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة.. حتى فجأه الحق، فجاءه الملك، فقال له: (اقرأ).

وهذا يفيد أنه ﷺ نبئ بأول مراتب وحي النبوة، وهي الرؤيا الصادقة، وأنه ﷺ دام على نبوته حتى فجأه الحق، وجاءه

الملك بالرسالة في وحي اليقظة بشدته وقوة تنزله، وبما نزل به من آي القرآن الكريم، الذي بدأ بنزول أوائل سورة (اقرأ).

وقد قدمنا نصوص الأحاديث التي خوطب فيها النبي ﷺ بعد مفاجأة الغار وقبل نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ بأنه رسول الله حقًا، وأن المخاطب له جبريل أمين الوحي، ولا تستقيم مخاطبته ﷺ بذلك في تكرار وتثبيت إلا إذا كانت الرسالة قد أنزلت عليه، وتجلبب جلباب نورها.

ونزول قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ بعد فترة الوحي التي سبقها باتفاق نزول ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ يدل على أن مطلق الرسالة كان قد سبق نزول هذا الأمر بالإنذار، ثم جاء هذا الأمر ليوجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى نوع من ضروب التبليغ قد يكون أشقها وأصعبها، وهذا النوع هو التخويف من بطش الله ونقمته وعذابه، وقد كانت البيئة، وهى تهوي في مهاوي الوثنية أحوج ما تكون إليه.

وإطلاق الإنذار من كل قيد يتعلق به يجعله بمعرض الامتثال على أية صورة من صور الامتثال والإجابة، حتى جاء الوحي بمراتبه، وتعيين من اختارته العناية الإلهية ليكون أول من يفر إلى الله بقبول رسالاته، وقد تمثل ذلك في دعوة الخواص الذين يجيبون دون تردد، فكانوا هم أسبق السابقين إلى الإيمان بالرسالة وإنذارها.

الفهرس